الفصل الثانى

١ – أهم معارك الحرب العظمى
٢ – معارك العراق
٣ – الاحتلال البريطانى
٤ – الحرب والسلم

١

أهم معارك الحرب العظمى

كان للحرب العظمى أثر ظاهر فى حياة العراق ، فقد غيرت مجرى حياته السياسية والاجتماعية ، فقد دبت فيه حياة جديدة أيقظته من سباته العميق الذى كان يعيش فيه فى عهد الدولة العثمانية ، إذ هزت الحرب بحوادثها وأجوائها العراقيين هزًّا عنيفاً ، واستيقظت الأذهان على صيحات القومية ، وشعارات الوطنية ، ورغبات الشعب فى الحرية ، والاستقلال ، فأخذ بعض الشعراء يفكرون تفكيراً جديداً يخالف التفكير الإسلامى الذى ساد العراق طويلا والذى كانت أهم أسسه الجامعة الإسلامية ، فقد بدأت المطالبة بالكيان الذاتى والحكم المنفصل عن الدولة الحاكمة ، وأهم حافز دعاهم إلى ذلك ، هو الاحتلال البريطانى المباشر ، وتقسيم البلاد العربية إلى أجزاء متباعدة . . وشدد هذه الرغبة فى النفوس رؤية الجنود البريطانيين والهنود يحكمون بلادهم حكماً مباشراً ، وغدت قضاياهم تدار من المندوب السامى والحكام السياسيين الذين لا تربطهم صلة بالعراقيين غير صلة القوة والاستعمار . . والقوانين التى فرضتها قوات الاحتلال[1] والتشدد فى تطبيق نصوصها بوساطة قوات الشرطة المحلية التى أطلقت عليها لفظ (الشبانه)[2] ولو قورن هذا العهد مع العهد العثمانى فلن يجد العراق مظاهر الاحتلال المادية التى يراها اليوم ، فقد كانت قوات الدرك محلية وكان بعض ضباط الجيش من أبناء العراق ، ولم تكن لمظاهر الحكم العثمانى غير وجود حفنة من الموظفين الذين يوفدون من الآستانة ، تربطهم مع الشعب رابطة الدين ، والجوار والتاريخ . . مع أن الوالى والقائد وبقية الموظفين كانوا يعينون من الآستانة ، إلا أنهم لم يكونوا

---

(١) لاحظ بشأن عناية القوات المحتلة الأولى بالجيش والشرطة .

Loyalties Mesopotania by A. T. Wilson. P. 66 London. 1936.

بقيت الإدارة حتى تشرين الثانى سنة ١٩٢٠ عسكرية بالرغم من تسميتها الإدارة المدنية فقد فرضت من قبل السلطات العسكرية لظروف الحرب .

(٢) الشبانه : كلمة فارسية معناها حراس الليل .

دائماً من دم تركى ، وقد شارك بعض العرب من السوريين وبعض الأكراد فى مسئولية الحكم فى إدارة إقليم العراق ، يضاف إلى ذلك أن هناك طبقة من الموظفين العرب ، كانوا قد تلقوا دروسهم فى المدارس التركية جنباً إلى جنب مع الأتراك ، وكانوا يرسلون معاً إلى ألمانيا لدراسة الأركان ، فلم يكن التمييز واضحاً ، وغالباً ما حدث التزاوج بينهم . وعندما اندلعت الحرب كان العراقيون يحاربون فى صفوف الأتراك فى كثير من ساحات المعارك ، بينما كان الإنكليز يختلفون اختلافاً ظاهراً ويبتعدون عن العراقيين فى كثير من هذه الصلات (٣) وشعر هذه الفترة السياسى كان متأثراً بعاملين مهمين :

الأول : العامل الدينى : وهو الشعور الذى كان قد تربى عليه الشعراء فقد كان يهز مشاعرهم ويربطهم بالدولة العثمانية ، كما تجلى ذلك فى الفصل الماضى وهذا الشعور دفعهم إلى مساعدة الدولة والمبادرة إلى إنجازها متى ألم بها خطب ، أو اعتراها أمر ، وقد كان من هؤلاء الشعراء المخلص العميق الإخلاص فى اعتقاده ، وكان شعره يصدر بدافع ذاتى محض ، ومنهم الشاعر المجامل الذى لا قدرة له على الوقوف أمام الوازع الدينى الذى كان يسيطر على الشعر آنذاك ، فيضطر لظروف متنوعة للنظم ، مجاراة أو حب المشاركة والظهور .

الثانى : العامل الخارجى ، وهو الرغبة فى المنفعة الذاتية ، بغية التقرب من الحكومة ، وطمعاً بما لها من قوة ، ودافعه الخوف من السيطرة والحكم . فقد كانت تركيا تحارب الحلفاء مع الألمان ، أى أنها متفقة مع جماعة غير مسلمة ، بل إنها أسلمت لها القيادة فى العراق ، فقد كان قائد الجيش التركى السادس ألمانيًّا (٤) وقف بجيشه للدفاع عن العراق ضد الإنكليز ، فكيف يلائم الشاعر المسلم بين شعوره مسلماً وبين شعوره موالياً لدولة يعدها كافرة ، إن المصلحة هى العامل الخارجى الجديد الذى ألجأ الشاعر لمسايرة ركب الدولة العثمانية المسلمة .

---

(٣) النظام السياسى فى العراق : محمد عزيز ص ٥١ قال جمال السفاح الذى شنق أحرار العرب « أما العرب الذين تألفت منهم الفرقة الخامسة والعشرون فقد أدوا واجبهم – فرقة دمشق – بمنتهى الشجاعة والإخلاص » لاحظ الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد حـ١ ص ٩٧ مصر ١٩٣٤ بصدد إخلاص العرب .

(٤) كان القائد الألمانى الفلد مارشال فون دركولتز .

Feild Marschall Von der Goltz : My Compaiyn In Mesopotamia : Sir Ch. O. F. Townshend P. 11. London 1920.

وعندما أعلنت الحرب العظمى ، بعد مقتل ولى عهد النمسا من قبل الصرب كانت هذه الطلقة عود الكبريت الذى أشعل البارود فى العالم ، والطريف أن يتنازع شاعران عراقيان فى صدى هذه الطلقة فقد رآها أحدهما [٥] قد أثارت الفوضى والاضطراب ، فى أنحاء العالم ، وقلبت السلام رأساً على عقب ، والصربى رجل فوضوى يستحق كل عقاب ولعنة ، بإثارته الحرب حتى فسد النظام فقال :

وما هى لو أمعنت إلا رصاصـــة ... فكم خرّبت ملكاً وكم أهلكت رهطا
أشاط بها الرامى ولو حال أنها ... ستخترق الأرض العريضة ما اشتطا
رمى الطلقة الأولى فكان مجـــرباً ... وعاد إلى الأخرى فأحكمها ضبطا
رماها وما أدراك أى رمـــاية ... أصاب بها قلب النظام وما أخطا
فوسطها قلباً ، شظاياه ، لو درى ... من الدول الكبرى — هى الدول الوسطى
رصاصة ذاك الفوضوى هى التى ... أرتك النظام الاجتماعى منحطا[٦]

وأما عبد الرحمن البنا ، فقد انبرى له قائلا : إن هذه الرصاصة ستكون السبب فى استتباب الأمن والنظام وعودة الأمور إلى مجاريها . . هذه الظاهرة تدل دلالة واضحة على أن الموضوعات العامة لم تكن تعالج معالجة جدية منبعثة من نفس الشاعر ومشكلات المجتمع ، وكان الشعر وسيلة من وسائل إزجاء الوقت كما كان فى القرن التاسع عشر . . وإلا فهذا موضوع جديد طريف أتيح للشعراء ولم يستفيدوا منه فى بحث مشكلات الحرب وما تجره الحرب على الناس من ويلات ، فلم يتناول هذان الشاعران المصائب الإنسانية التى تجرها الحرب وكل ما كان من أمرهما أن يتنازعا فى الصربى الذى قتل ولى عهد النمسا أهو فوضوى أم أنه أراد الخير ! وهذا ما يقوله الشاعر عبد الرحمن البناء :

لقد أكبرت نفس الأبى رصاصة ... قد استعرت ملكاً وقد حررت حرا
رمى كبد الفوضى بها وأصابها ... فأصمت وفى حسن النظام لها مجرى
وألهمها روح العلاء — وقد درى — ... من الدول الوسطى ستنتقم الكبرى

---

(٥) لم يذكر الشاعر اسمه وإنما وقع (شاعر)
(٦) دار السلام ١٥ — ١ — ١٩١٨.

رصاصة ذاك الاجتماعى منذ دوت　　أرتك انحطاط الفوضوى سما قدرا
درى أن فى قتل الخصيم حيـاته　　فأقصد منه قبل إطلاقها الصدرا [٧]

والحقيقة التى لا مناص منها أن الدول ، كانت تبحث عن سبب لإشعال الحرب لأنها كانت على أهبة القتال ، ولم يكن مقتل ولى العهد إلا سبباً تافهاً ، اتخذه هؤلاء لإيقادها ، وقد عالج هذا الأمر محمد رضا الشبيبى بقصيدة قال فيها :

وما حربنا المشبوبة ابنة آنهـا　　ولا نشأت عن قتل من ولى العهدا
وما حمل الدولات أن تلج الوغى　　تعاهدها بل إنها اختلفت قصدا
فنـاشـدة ثـأراً لتـدرك ثارهـا　　وطالبـة فتحاً وحارسة مجداً [٨]

واقعة الدردنيل :

لعل أول معركة حربية ، أثرت فى الشعر العراقى خلال الحرب العالمية الأولى كانت معركة الدردنيل ، فلما أعلنت تركيا الحرب فى الخامس من تشرين سنة ١٩١٤ ، ضد الحلفاء ، تلك الحرب التى لم تكن تريدها ، لما أصاب جميع مرافقها العامة ، من وهن ، سواء العسكرية منها أو الاقتصادية . أرادت من إعلانها أن تتعلق بسبيل لخلاصها ، فقد رأى القادة ، أنور ، وطلعت ، وجمال ، أن انتصار الحلفاء معناه استيلاء روسيا على الآستانة والمضايق ، فيجب مساعدة ألمانيا للمحافظة على تركيا نفسها ، وإبعاد فرنسا عن سوريا وإنكلترا عن العراق[٩] فأرادوا محاربة الحلفاء بغلق المضايق بوجه سفنهم الحربية لمؤازرة ألمانيا التى خسرت إحدى المواقع الحربية [١٠] خاصة أن جرجل أراد أن يهاجم المضايق ومحالفة اليونان ، ويوضح قصده ، الاستعدادات التى أقامها فى مصر وقبرص ثم الإنزال الذى أنزله الحلفاء لفتح طريق المواصلات بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود ، لمساعدة روسيا ، وقد بدأ الإنزال فى شباط ١٩١٥ كتدبير حربى ، ولكن القائد هاملتون ،

---

(٧) نشرت فى دار السلام العدد ١٧ السنة الأولى ١٩١٨ بتوقيع « شاعر » وقد نشرت فى النور العدد ١٢٧ سنة ١٩٢٩ بتوقيع البناء الصريح وهى كأغلب شعر البناء ضعيفة البناء والتركيب .

(٨) الديوان ص ١٧ .

(٩) على طريق الهند بغداد ١٩٣٥ ص ٢٣٢

(١٠) W. Churchill, The World Cirisis (1910- 1915) P. 229- 235. وعلى طريق الهند ص ٢٣٣

لم يقدر على إتمام عملياته الحربية ، فقد حصن الأتراك المواقع الحربية فى المضايق [١١] وفشل الإنزال وكان لفشل الإنزال أثر كبير ، ورنة فرح ، فى نفوس الشعراء ، فقد نشرت مجلة العالم الإسلامى ، التى تصدر فى الآستانة قصيدة باللغة التركية ترجمها معروف الرصافى شعراً سجل فيها انتصار الأتراك وردهم المعتدين على أعقابهم منها :

تقحم ثغر الدردنيل مهاجما عدوان للإسلام ، فى البر والبحر[١٢]

ولكن أمد الله – بالنصر – جيشنا فكان–من الفولاذ–حصناً على الثغر[١٣]

وقد هاجم كاظم آل نوح هاتين الدولتين ، وقال : إن حصن الدردنيل حصن مكين قوى تحرسه الأسود ، وعندما أنزل العدو جيوشه ، كانت قوى الجيش تقف لهم بالمرصاد فأذهلهم وأدهشهم بعددها وعديدها :

حصن الله حوزة الدردنيل بكماة غلب ، وآساد غيل

طهر الله ، أن تنجس منها – باحتلال الأعداء – بعض الطلول

يوم سالت – إنكلترا وفرنسا بالأساطيل – مثل جرى السيول

وجموع ضاقت رحاب الفيافى فيهمو ، والرعيل إثر الرعيل

جهلت للإسلام ، حصناً منيعاً عنه عادت ، بدهشة المذهول[١٤]

وقد بلغ من إعجاب البناء بالمحاربين ، أن تمنى أن يفديهم بنفسه لأنهم حافظوا الآستانة نفسها ، من عدوان الحلفاء وكبدوا الحلفاء الكثير فقال :

يا بنفسى من حافظوا الدردنيلا وعلى الائتلاف ، سدوا السبيلا

حافظوا مركز الخلافة ، حتى عاد ما حاول العدى المستحيلا

حصنوا ثغر بحرهم بدفاع كم وكم أغرقوا به أسطولا[١٥]

---

(١١) للتفصيل عن واقعة الدردنيل يقرأ المقال المنشور فى ص ٥٢ وما بعدها فى

Incyclopeadia Britanica Vol. 7. London.

وقد كتب العسكرى شيئا عن هذه المعركة فى مذكراته ص ٤٦ ، ٤٧ .

(١٢) العدوان : فرنسا وإنكلترا .

(١٣) مجلة العالم الإسلامى ، الآستانة ، ٩ نوفمبر ١٩١٦

(١٤) صدى الإسلام العدد ١٥٨ السنة الأولى ١٣٣٤ هـ

(١٥) صدى الإسلام العدد ٢١٥ السنة الأولى ١٣٣٤ هـ

أما موقف محمد على اليعقوبى فكان موقف المتهكم ، على هذه القوات التى هاجمت البسفور ، ولكنها لم تنل منه شيئاً ، إنما أكسبت الجيش العثمانى فخراً جديداً ، وعزًّا مجيداً . ولم ينس اليعقوبى ما للألمان من يد ، فى مساعدة الجيش التركى ، فى طرد المهاجمين ، الذين أرادوا احتلال الدردنيل عنوة فقال :

سلها غداة ازدلفت للبوغاز ... إذ خاب من خاب ، وفاز من فاز
نلنا بها مكرمة وإعزازاً ... والفوز أحرزناه ، أى إحراز
وانكفأت أعداؤنا بالجرمان
قد أقبلت تطفو بها الأساطيل ... فنازلتها صيدنا البهاليل
نحسبها – يوم سطت – أبابيل ... ترمى العدى حجارة من سجيل
حتى انجلى النصر لآل عثمان(١٦)

وقد نشرت جل القصائد فى جريدة صدى الإسلام ، فى بغداد ، ومن هذه القصائد قصيدة لمحمد مهدى البصير ، عنوانها إلى بطل العثمانيين أنور باشا ، يحيى فيها الوزير العثمانى ، ثم يصف مشهد الحرب ، فيقول :

ولئن أتت للدردنيل فحاولت ... أمراً ، به عنه نقل وتصغر
فلقد درى الأسطول كيف تذوده ... عنه ، المدافع بالصواعق تمطر
فكأنها كانت بأعلى جوها ... سحباً ، عليه بالعذاب تسخر
ما إن تقابله برمى شواظها ... إلا ورد مخافة يتقهقر

ومنها :

فعلى ضفاف البحر تلك تذوده ... ووراء لجته الفناء المضمر
خبأت له الأمواج نار وغى سوى ... ما فيه أفواه المدافع يفتر
فهناك قر إلى قرارة لجة ... والنار فى حافاته تتسعر(١٧)

(١٦) صدى الإسلام ١٧٢ السنة الأولى ١٣٣٤ هـ وقد نشرت القصيدة باسم محمد على يعقوب التبريزى .
(١٧) صدى الإسلام العدد ١٨٣ السنة الأولى ١٩٢٥ وقد تطرق الزهاوى إلى حرب الدردنيل فى قصيدة له فى صدى الإسلام العدد ٢٦٤ .

وأطرف قصيـدة نشرت فى هذا الحـادث ، قصيدة محمد حسن أبى المحاسن ، الذى أصبح فيما بعد وزيراً للمعارف . . فقد جمع فيها بين الغزل ، والتهكم ، على قوات الحلفاء التى هاجمت المضايق فقد قال :

وشـــادن أورثنى حبـــه ... كالاثتـــلافيين ، حزناً طويل
عـــزّ على الوصل ، منـــه كما ... عـز عليهم موقف الـدردنيل
والكل منـا لم ينـل قصـده ... وهكذا من طلب المستحيـل
قـد همت بالثغـر وهـاموا به ... والثغر نـاء إليـه سبيـل
وفتحـه كان لهم منيـــة ... ومنيتى أن أرد السلسبيـــل
أشكو ويشكونى الهدى ، والوغى ... فكلنا يصلى بنـار العليـــل
يا دولا فـــرّت أساطيلهـــا ... فرار سلوانى وصبرى الجميـل
كانت غاليبولى لهم مصرعـاً ... ومصرعى خد المليح الأســيل
دمـاؤهم مثـل دمـوع النـــوى ... على الظبـا والخد سالت مسيل
قد صـــادنى الظبى ولـــكنما ... صادتهمو من تـركيا أسد غيل
أودت بهم بيض حـداد ، كما ... بالصب أودى سيف لحظ كليل
ضيّعت قلبى يوم تزحالـه ... وضيعوا الشوكة يوم الرحيـل
ولست مسئولا بشرع الهـوى ... إن سألوا (كجنر) أو (جورجيل)
قد رجعوا بالعـار ، لـكننى ... رجعت فى العشق بمجد أثيـل
وجدت للحب بنفسى ، وهم ... قـد آثروا جبنا حيـاة الذليـل
إن ندموا اليوم على ما مضى ... فـلا أقيلت عـثرة المستقيل
قد نـزلوا بالحرب أوطاننـا ... ونحن عجلنـا القرى للنزيل[١٨]

(١٨) صدى الإسلام العدد ٢١١ السنة الثانية ١٣٣٤ هـ وقد أثبت القصيدة كلها لطرافتها .

٢

معارك العراق

كان دخول العراق ، أحد الخطط التى أعدها الحلفاء للقضاء على تركيا ومبادرة العمل فيه . فقد علم الإنكليز بعزم تركيا ، دخول الحرب ضدهم فبادروا إلى إنزال قواتهم فى البصرة ، واحتلوها فى ٢٣ من شهر تشرين الثانى سنة ١٩١٥[١] فهز إنزال القوات الإنكليزية مشاعر العراقيين إذ أخذ المستعمر يهددهم فى ديارهم فقد وطئ أرض الوطن ، يريد أن يكتسح العراق ويحتلها ، فتنادى أبناء الشعب للجهاد ، وقتال المغير المعتدى . وقد ساهم رجال الدين مساهمة كبيرة ، فقد أصدروا فتاوى تحث الشعب على الجهاد والقتال فى سبيل صيانة أرض الوطن غير أن قوات المستعمر الحديثة . واستعداده المتواصل ، أثر أثراً كبيراً فى انتصاره ، وكان أثر إعلان الجهاد فى الأقطار الإسلامية محدوداً فلم يأت بالثمرة التى كان يرجوها الألمان – حلفاء تركيا – والذى أخاف الحلفاء طويلا[٢] فبعد أن تسربت الروح القومية بين أبناء الشرق[٣] وأصبح الخوف من الاستعمار الغربى يروعهم ويدفعهم إلى القتال أكثر من الفتاوى المحدودة الأثر بأبناء القرى والعشائر ، فوعى ابن المدينة ، والرغبة فى الحرية والاستقلال لم يتسرب بين العشائر فقد ظهر أثر هذا الوعى

---

(١) كانت إنكلترة تعلم بعزم تركيا على دخول الحرب ضدها وقوى هذا الأمر أن ابن السعود كان قد أخبرهم بذلك بعد أن أنذره أنور باشا بلزوم الاستعداد لمهاجمة الإنكليز ، فقد سلم للمقيم السياسى نسخاً من البرقيات المرسلة إليه ، ويضاف إلى ذلك ما وصل إليهم من البصرة من أن الضباط الألمان فى طريقهم إلى البصرة . يمكن مراجعة جـ ١ من كتاب A. T. Wilson بصدد احتلال البصرة .

(٢) R. Muir, Political Consequences of Great War, London, 1932. P. 139.

(٣) لما زحف الإنكليز داخل العراق ، أخذ العلماء يستنهضون الناس للجهاد ومضى بعضهم مع العشائر إلى القرنة فأوسل عبد المطلب الحلى برقية فيها بيتان للشاعر باقر حيدر هما :

نحن بنى العـــرب ليـــوث الـــوغى دين الهـــدى فينـــا قوى عـــزيز
لابد أن نزحـــف فى جحفـــل نتـــرك نهباً – فيلق الإنكليـــز

لاحظ (المهرجان الخالد لذكرى آل حيدر) قامت بنشره لجنة الاحتفال طبع فى النجف ١٩٥٣ . المقدمة .

فى الشعر بارزاً واضحاً . فقد نظم الزهاوى قصيدة طويلة هاجم فيها الإنكليز المعتدين مهاجمة عنيفة نشرها فى أعداد متسلسة من جريدة (صدى الإسلام) خاطب فيها الجيش العثمانى الذى ذهب لقتال الإنكليز والقادم من قفقاسيا قائلا :

ألا أيها الجيش اللهـام المعسكر تقـدم ، فأنت المستطيع المظفـر

ويحيي فيها القائد أنور باشا ، ويذكر بلاءه فى الحروب ثم يمتدح الجيش الذى يفدى نفسه فى سبيل الدين والوطن ، ثم يهاجم الإنكليز فيقول :

وما هذه فى الـدهـر أول مـرة رأى الحق فيها الإنكليز فأنكروا

بغوا مرة ، من بعد أخرى ، فنالهم أذى البغى ، والتأريخ أمر مكرر

ويصف أعماله فى جبهات مختلفة ويمتدح الألمان وأعمالهم وانتصاراتهم بقوله :

بـل الألمـان اليوم من كل دولـة أشـد مراساً للحـروب وأقـدر

فكم غاص فى أرض الفرنسيس جيشهم كما غاص – فى صدر طوى الحقد خنجر

وينظر إلى الشرق وما حاق به من تهديد الأجنبى فيثير العزائم بذكر أمجاد العرب ودفاعهم عن ديارهم وأوطانهم . وبعد أن يعدد أعمال الإنكليز يعرج على مهاجمتهم أرض العراق فيقول : إن مهاجمة العراق عار يصيب العرب أجمع ، فيجب أن يقاتلوا حتى يخرجوهم من أرض الوطن ، وإلا فسوف يتوارى قحطان خجلا وما يذهب الخجل عنه إلا القتال :

إذا داس رجل الإنكليز ربوعهـا فلا (خندق) ترضى ولا (الأوس) تعذر

ليخجـل قحطانا – وينكس رأسـه – قعـود بنيـه عن عـدو يسيطر

أعيدوا – بنى عمى – إلى العرب صيتهم ومجـداً قديماً ذكـره يتكـرر

وفى القصيدة تصميم على مهاجمة العدو والاستماتة فى الذود عن الوطن المستباح منها :

سأغسل عنى العار بالسيف ، إنه ليصدق عند الضرب ، أو يتكسر

فو الله لا أثنى جوادى عن العدى غـداة غد ، حتى يولوا ويدبروا

ويرى أن الحرب لن تضع أوزارها إلا باعتراف الإنكليز بأخطائهم ، وإن السلم لن يظهر ما داموا مصممين على الحرب :

نحارب حتى نأمن الغدر ، إنهم متى يبصروا وهناً من الشعب يغدروا
إلى أن يقول الإنكليز بنفسهم نعم ، نحن أخطأنا السياسة ، فاعذروا
هناك فأمل أن يزول دجى الوغى وينشق فجر الصلح ، والسلم ينشر(٤)

وللشبيبي قصيدة نظمها فى واقعة سلمان باك بعد أن فقد المحاربون كثيراً من القتلى ، قال فيها :

أيستبيح الحمى قوم أمامهمو ومن وراء الحمى غلب مساعير
يا من أحبوا على الدنيا شهادتهم تزينت لكم الولدان والحور(٥)

وله قصيدة أخرى نظمها بعد واقعة (الشعيبة) استنفر فيها العراقيين ، والشعيبة من المواقع المهمة الأولى فى حياة الحرب فقد جاء القائد سليمان العسكرى بك ، ومعه فريق من الجنود الأتراك ، متجهين نحو البصرة ، وهناك حدثت معركة كبيرة جرح فيها القائد التركى سليمان ، وبالرغم من أنه أُعيد إلى بغداد وقضى شهرين فى المستشفى إلا أنه أبى إلا مواصلة القتال ، فقاد الجيش التركى بنفسه ومازالت الجراح لم تندمل فأعدت له محفة تحمله وهاجم الإنكليز هجوماً عنيفاً استمر يومين لم يصب فيه القائد أى نصر ، ثم انتصر الجيش الإنكليزى فى موقعة حاسمة واندحر الجيش التركى بين أسير وقتيل ، فما كان من القائد إلا الانتحار ألماً وحسرة بعد أن أبدى من الإخلاص والوفاء ، والإباء ما استحق به أن يخلد مع الأبطال ، وقد نظم محمد رضا الشبيبى فى هذه الموقعة وأثنى على كثير من تفاصيلها ، ثم وصف القائد التركى بقوله :

وقائد حملوه فى محفته إلى (الشعيبة) من زوراء (بغداد)
أفاتك بالعدى جيش مدبره معطل الجسم ، ملقى فوق أعواد ؟
جرى (سليمان) فى استعجال مصرعه مجرى كفاة بأمر الحرب قواد
قاد الألوف فأرداها وأتبعها فى الحال نفس أبى غير منقاد
مخاطراً عاش أعماراً لأن له فى إثر كل نجاة يوم ميلاد(٦)

---

(٤) صدى الإسلام ، الإعداد ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، من سنة ١٣٣٢ وله قصيدة أخرى فى ديوانه المطبوع سنة ١٩٣٤ ص ١١٤.

(٥) ديوان الشبيبى ص ٣٢ .

(٦) الديوان ص ٤٩ للشبيبى غير هذه القصيدة فى الحرب العظمى قصائد فى ديوانه لاحظ ص ١٢ ، ١٥ ، ٣٠ ، ٤٧ .

أما عبد الرحمن البناء ، فقد دعا الناس إلى القتال وترك الكسل والتخاذل ، لأن العدو ، قادم من مكان بعيد ، وأى ذل أكبر من هذا الذل . وأى جبن أحط من هذا الجبن وهذه معاول الشرك الإنكليزية تهدم صرح المجد الإسلامى فى الشرق فقال :

بنى العراقين لا تنحط همتكم ... فرب بارقة تجلى بها الظلم
بنى العراقين ! حلّ الخصم ساحتكم ... وفى حماكم له مرعى ومغتنم
قد جاءكم من وراء البحر معتزما ... وذاك عار عليكم ليس ينحسم
أجدادكم تحت طى الترب تندبكم ... أين الجلالة أين البأس والهمم
فكيف يهنأ لكم عيش بأرضكم ... والإنكليز بها يرسى لهم قدم
لمن تشاد مبانيكم ومجدكم ... بمعول البغى والإشراك منهدم
أنتم بنو الشرف الأعلى وعترته ... تمسكوا بعرى الإيمان واعتصموا (٧)

وقد تهكم البناء من أبناء العراق ،الذين يتركون العدو المغرور يحتل بلادهم ، ويتحكم فى مصائرهم ، ومستقبلهم ، وحياتهم ، ولن يعيش الإنسان إلا مرة واحدة ، فيجب أن يعيش كريماً عزيزاً ، كما عاش أسلافه العرب ، سادة الدنيا وإلا فالموت خير من حياة الذل والهوان . وللبناء قصيدتان أخريان ، الأولى عنوانها (العيد والحرب) وفيها رسم صورة النسوة وقد ارتدين الحداد ، ولكن فى أعيادهن السالفة يرفلن بملابس زاهية لطيفة . . رسم هذه الصورة ليثير نخوة المسلمين ، لمهاجمة الجيش الفاتح بلادهم ، ثم تصور فتاة حرة أبية ، وقد غدت سبية بيد العدو ، وقد استاقها العلج أمامه ، وهى تصرخ وتولول نادبة أهلها وحماتها وقد حملت ولدها الصغير . . رسم هذه الصورة الحزينة ليستنفر هذه الهمم الميتة وليثير الشعب على المهاجمين ولنترك القارئ يتتبع هذه الصورة :

رب ، فى الروع ، حرة قد سباها ... علج كفر ، فلا يخاف الوعيدا
ساقها عنوة بسوط وجيع ... غلّ منها سواعداً وزنودا
وهى تبكى أهلا ، وتندب بعلا ... وتكنى آباءها والجدودا
وعلى صدرها هنالك طفل ... قلدته من الدموع عقودا
فاجأته رصاصة بحشاه ... فهوى صارخاً يكد الصعيدا

ولو عولجت هذه الصورة بشعر شاعر ذى أسلوب متين ، لخلد هذه الصورة ، ومع

(٧) صدى الإسلام ، العدد ١١ سنة ١٣٣٣ .

ذلك فقد كانت الفكرة بحد ذاتها فكرة رائعة ، ويستمر البناء فى إتمام رسم هذه الصورة بإضافة صورة الأم التى قتل ولدها وهى تحمله والدماء تسيل على جسمها ، وقد ذهبت منه حرارة الحياة وبقيت برودة الموت ، وحيرة الأم بين ترك ولدها الذى كان حيًّا يملأ قلبها أملا وبين تركه على الأرض بعد أن مات فيه رجاء الحياة ، وصف الأم الولهى الحيرى المشتاقة عنوة بقوله :

تركتـه رغماً عليهـا وسيقت ... وهى تلوى إليـه عينا وجيـدا
تتقى ستر وجههـا ويداهـا ... فى قيود ، من ذا يفك القيودا ! ؟

وبعد أن اطمأن إلى رسم هذه الصورة المثيرة المفزعة ، التى أثارت الغضب والألم ، والانتقام فى النفوس ، دعا إلى محاربة الأعداء وإجلائهم عن الديار والمواطن ليتم فخر المسلمين بإخراج الكافرين .

أيهـا المسلمون ! لا فخر إلا ... بجعـل الخصم فى القفـار طريدا

ثم يصرخ بوجه المسلمين داعياً إلى الحرب مادام الموت نهاية كل إنسان فخير له أن يموت شهيداً :

فهلموا إلى النفـير سراعاً ... لا تهـابوا مدافعاً وجنـودا
كل نفس مصيرها الموت ، لكن ... من يمت بالدفاع مات شهيدا (٨)

وفى القصيدة الثانية ، ظهرت الروح الإسلامية جلية ، فقد صور احتلال الإنكليز للعراق الذى سيحول الجوامع إلى كنائس فيرسم الصليب على كل محراب ؛ وقد عد المسيحيين من أهل الكفر ، الذين تجب محاربتهم ، وهذا انعكاس لصدى أفكار العصر البعيدة عن روح الإسلام ، فقد كانوا يعتبرون غير المسلمين كفاراً مع أن الإسلام صريح فى عدهم من أهل الكتاب وأنهم أقرب مودة للمسلمين . غير أن الروح السياسية هى التى فرضت على الشاعر هذا الرأى ، ولعل مرد هذا الحروب الصليبية ، لأن العراقيين لا يسمون المسيحى بالكافر ، وأن العرب الأقدمين كانوا يسمونهم بأهل الذمة أو أهل الكتاب ، ولفظة كافر كانت تطلق على الأوربيين بصورة عامة ، وقد يكون للحروب التى كانت تشنها الدولة أثر فى إطلاق لفظة كافر على أعدائها ، فقد وجدت هذا النعت يطلق على الأوربيين فقال البناء :

---

(٨) صدى الإسلام ، العدد ٢٢ سنة ١٣٣٣ .

جوامعكم غدت بيعاً ، وفيها سما فخراً ، على الحق الضلال
أيرسم فوق محراب صليب وفى أفق الهدى يزهو الهلال

ويؤكد ذلك قوله :

كأنى بالليوث الصيد صالت على الكفار فانفرج المجال[٩]

وقد قيل الكثير من الشعر فى هذه الفترة ، ويمكن مراجعة دواوين بعض الشعراء الذين أثبتوا هذا الشعر فى دواوينهم وفى جريدة (صدى الإسلام) كفاية للباحثين فمن ذلك قول رشيد الهاشمى :

إلى الوغى هبوا وحمل السلاح واسترجعوا ما فات قبل الصباح
من نام عن أوطانه غافلا يصبح فى عرض ومال مباح[١٠]

وقد كانت الحرب مستعرة الأتون لصالح الألمان أكثر من فائدتها للأتراك فقد أجبروا تركيا على خوضها[١١] وقد ظهر ذلك فى شعر بعض الشعراء ، واتجاهاتهم ولم تكن الفكرة صريحة فقد عرضت بتحفظ زائد ، فقد أبدى شكرى الفضلى رأيه فقال : إننا فى حربنا هذه ندافع عن الألمان ، وفاء منا للصداقة ، وحفظاً للوداد ، مع ما فى الحروب من أهوال :

لندفع عن خلين من آل جرمن على حين قد خان الخليل خليل

وكان الرصافى وقت إعلان الحرب ودخول الإنكليز العراق فى الآستانة فدعا المسلمين إلى الجهاد والذود عن الوطن الإسلامى ، فى مختلف أقطاره ، وقد اعتمد فى الدعوة إلى الحرب على الناحية الدينية ، ولم يكن مندفعاً متهوراً يرسل القول على عواهنه ، إنما نظم القصيدة بروح المتحمس العاقل الرزين ، فلم يقل إن الإنكليز كفار ، يجب أن يحاربوا لكفرهم ، ولم يهاجم الصليب أو يتطرق إلى الهلال ومكانتهما ، فشأنه شأن المسلم المثقف ، الذى يعرف ما له وما عليه من أمور الدين ، هاجم الإنكليز لأنهم شعب يريدون أن يستعمروا أوطانه ، ويهدموا الدولة العثمانية ، التى يدين لها بالولاء ، والأبى الكريم لا يرضيه إذلال بلاده

---

(٩) صدى الإسلام ، العدد ٤٨ سنة ١٣٣٣.
(١٠) صدى الإسلام العدد ٤٧.
(١١) على طريق الهند ص ٢٣٢.

وامتهان حرمتها فهو يحارب لأن العدو قد دخل بلاده ، وعليه أن يحفظ بلاده ويحمى شعبه ، فهو يستنفر المسلمين قاطبة ويدعو كل قادر على حمل السلاح أن يذود عن هذا الوطن ، لأن الواجب الوطنى والدينى يحتم عليه ذلك فقال :

يا قوم إن العدى قد هاجم الوطنا فانضوا الصوارم واحموا الأهل والسكنا
واستنفروا لعدو الله كل فتى ممن نأى فى أقاصى أرضكم ودنا
واستنهضوا من بنى الإسلام قاطبة من يسكن البدو والأرياف والمدنا
واستقتلوا فى سبيل الذود عن وطن به تقيمون دين الله والسننا

ولم يكتف الرصافى بمهاجمة الإنكليز ، وحدهم إنما تطرق إلى موضوع آخر ، هو مهاجمة الذين ساعدوا الإنكليز من العرب ، وشايعوهم فى الصداقة فأصلاهم حرباً شعواء من الهجاء ، لأنه يرى فى مساعدة الإنكليز الخيانة المتجسمة . . وسخر من الذين شايعوا الإنكليز سخرية لاذعة ، فهاجم حسين كامل خديو مصر ووزيره حسين رشدى قائلا :

قل للحسينين فى مصر رويدكما قد ختما الله والإسلام والوطنا
شايعتما الإنكليز اليوم عن سفه تالله ما كان هذا منكما حسنا
قد بعتما الدين بالدنيا مجازفة فكنتما فى البرايا شر من غبنا

ويتطرق إلى مزايا الدين الإسلامى ويفخر بأنه لابد أن يسود وترتفع كلمة التوحيد ، ويحلق الرصافى فى مدح الدين الإسلامى ، ويذكر ما فيه من شرف ومجد وأن الرصافى يفديه بالأرواح ، ومن ثم يتطرق إلى ما حدث لوطنه العراق من احتلال فيقول :

إن العراق لعمر الله مسبعة تواثب الأسد فيه من هنا وهنا
دون الوصول إليه كل مشعلة شعواء تترك وجه الشمس مكتمنا
فإن فيه رجالا من بنى مضر إذا تحارب لا تستشفع الهدنا(١٢)

وله قصيدة أخرى نظمها عندما دخلت إيطاليا الحرب ، وفيها فكرة خيالية إذ رأى الطليان جماعة اقترفوا العار ، وزلوا زلة شنعاء ، فهاجمهم هجوماً أخرجه من طوره الهادئ

(١٢) ديوان الرصافى ص ٤٨١ ، المشعلة : غارة متفرقة تأجج من كل جانب ، مكتمن : مختف .

الوقور الرزين[١٣] وقد اشترك بعض الشعراء فى النضال والحرب ، كالشبيبى ، ومحمد سعيد الحبوبى ، وعبد المطلب الحلى ، فقد استنهض الحبوبى القبائل للقتال والجهاد ، ويمتاز الحبوبى بالمكانة الدينية السامية المرموقة ، ومن المؤسف أننى لم أعثر له على قصيدة فى هذه المناسبة ولعله انشغل بكل جوارحه وبكل ما يملك من قوة فى أتون المعركة الفعلية عن نظم الشعر والجهاد بالنفس أغلى وأثمن من الجهاد بالشعر[١٤] .

وقد شارك علماء الدين بالفتاوى التى حثت المسلمين على الحرب[١٥] ووزعت بين القبائل لمؤازرة الدولة العثمانية التى تدافع عن الدين الإسلامى ، وقد لبى الكثير نداء الفتاوى على اختلاف مذاهبهم وقومياتهم مفضلين أهون العدوين الذى تربطهم به الرابطة الإسلامية . ولم يكتف العلماء بالفتاوى وإنما شاركوا مشاركة فعالة فى الحرب ، فقد حارب قسم منهم مع العشائر ، فقد ذهب صالح الحلى من النجف إلى بغداد لكى يحرض الناس على الجهاد بخطبه وبيانه ، وقد بقى الحلى فى بغداد حتى سقوطها بيد الإنكليز ، لا يكل ولا يهدأ[١٦] وقد كان عبد المطلب الحلى يزور[١٧] جبهات القتال ، ويستنفر القبائل وزعماءها لمناصرة الأتراك ، يدفعه الشعور الدينى المخلص[١٨] ولم يكتف بالزيارة وتحريض القبائل ، إنما نظم قصيدة ، دعا فيها إخوانه العرب إلى مشاركة الأتراك فى القتال ، لا لأنهم يقاتلون عن بلادهم ، وإنما لأنهم إخوانهم ، ويجب حبهم ومودتهم ، وأخذ يبرر الأعمال التى اقترفها الأتراك فى العراق من قبل بقوله :

رفقاً بإخوانكم يا عرب إنهم لم يغصبوا قبلها حقًّا لكم وجبا

ويؤنب العرب ، لأنهم لم يسارعوا فى ضرب الإنكليز ، ويدافعوا عن العراق عندما دخل الإنكليز البصرة ، وقد سره أن يستمر خيون العبيد فى حرب الإنكليز فقد أعطى مثلاً حياً للمواطنين ، ونموذجاً ناطقاً للبطولة والكرامة ، فقال :

بنى العرب العرباء من نومكم هبوا ونهضا إلى الجلى ، فقد عظم الخطب

---

(١٣) الديوان ص ٤٨٩ .

(١٤) ترجمته فى الحقائق الناصعة بغداد ١٩٥٣ لاحظ حـ ١ ص ٣٦ .

(١٥) تراجع جريد صدى بابل بصدد الفتاوى والتبرعات واحتفالات بشأن مشاركة رجال الدين فى القتال .

(١٦) شعراء الحلة حـ ٣ ص ١٦٣ .

(١٧) للسيد عبد المطلب الحلى دعوة للجهاد نشرت فى العدد ١٣٩ ، ١٤٠ من صدى الإسلام .

(١٨) شعراء الحلة حـ ٣ ص ٢٠٢ ، ص ٢٠٤ .

نكصتم وحرب الإنكليز لحربكم تقدم لا يثنيه طعن ولا ضرب
وأرسى على الثغر العراق بغتة بعادية ، أضحى يضيق بها الرحب
فما صمدت منكم لدى العز كرّة تعود لجيش الكفر وهو لكم نهب
فمن مبلغ العرب الكرام رسالة وإن كان لا تجدى المراسيل والكتب
أبثهم من مؤلم العتب نفثة بها ضاق رحب الصدر واعتلج الكرب
سأندبكم عرباً ، أقاموا بخطة من الضيم لا يرضى بها الرجل الندب
يسومهم الغدّار خطة نازل على حكمه قسراً لها ذلت النجب

هذا عتاب مؤنب عميق أثره فى نفس الشاعر ، سجل فيه الشاعر انهزام القبائل ، وتفرق جموعهم بعد موقعة حربية ، غير أن خيون العبيد وقبائله ، أبدوا من ضروب البسالة والإقدام ، ما أثار فى قلب الشاعر المشاعر بالفخر والمباهاة فقال :

ولولا رجال قد تمامهم إلى العلا نزار ، لغنّى فى هجائكم الركب
فوارس من عليا ربيعة أحرزوا حديث علا ، فى نشره ازدانت الكتب
جزى الله (عبد القيس) أفضل ما جزى به عاملا عن فعله رضى الرب
لقد فعلوا فعلا حوى المجد كله وفازوا بأجر ليس يحبطه ذنب

وبعد ذلك يذكر المواقع الحربية التى انتصر فيها العرب على الجيش البريطانى فيقول :

هو منعوا يوم (السويج) حريمهم بيض الظبا من أن يراع لهم سرب
وفى يوم (أم الملح) أبقوا مآثرا من المجد فيها لم تزل تفخر العرب
غداة البريطانى قد قاد جحفلا لهاماً ، به نار المدافع لا تخبو
فردوه للأعقاب خزيان ناكصا فولى وفيه القتل والأسر والسلب

ويبدو إعجابه الشديد بالشيخ خيون العبيد ، الذى حمى الإسلام من الأعداء وأعاد للعرب كرامتهم ، وعزتهم ، وبصف هجماته ، على العدو الزاحف دون أن تخيفه الأهوال ، أو ترعبه المعامع ، والمعارك ، لأنه كالسيف عزيمة ومضاء وقوة ويستثير همته بما فكر فيه العرب من ترك دينهم والدفاع عن وطنهم فقال :

أخيون إن العرب قد ألقت العصا وبانت على رأى هو السلم لا الحرب

وهان عليها دينها وديارها وليس فتى إلاّك تعلو به العرب
فشمر إلى الحرب العوان بهمة إذا صممت أمراً لها سهل الصعب[١٩]

وقد سارع محمد حبيب العبيدى ، فألف كتابين ، الأول أسماه (حبل الاعتصام)[٢٠] والثانى (جنايات الإنكليز)[٢١] وفى الكتابين يحرض الناس على حرب بريطانيا فقد قال : ما كان عرش بريطانيا لتكلله الحشمة وتظلله العظمة لولا أن دعائمه هم المسلمون فمن صالح بريطانيا ألا يكون على وجه البسيطة دولة إسلامية ، ذات حول وطول ، تستطيع أن تكون سنداً للذين يحملون عرشها ويتخبطون فى أغلال أسرها من أولئك البائسين . ولا ريب أن مناط تعزيز الدولة وكونها قوية الشكيمة ، ذات حول وطول ، إنما هو اتحاد الكلمة ، وجمع الشتات والخلافة هى كعبة السياسة للمسلمين ، تتوجه شطرها وجوههم أينما كانوا ، وتهوى إليها أفئدتهم فى كل مكان . وهى الرابطة الكبرى للشعوب الإسلامية ، والوسيلة العظمى للم الشعث ، وجمع الشمل ، فهى أجدر من أن تكون تلك الدولة التى لا تستطيع أن تكون سنداً للبؤساء الذين يئنون تحت أثقال الحكم البريطانى من إخواننا المسلمين » .

ثم يصل إلى قوله :

« من أجل ذلك كان الإنكليز أكثر الأمم ضرراً للمسلمين ، وأشد الأقوام عداوة لهم ولخلافتهم المقدسة . ولدينهم المبين ، ثم لهلالهم الممثل لعظمة هاتيك المقدسات[٢٢] . فالعبيدى يرى الإنكليز أشد الناس عداوة للإسلام وأكثرهم ضرراً وبذلك يحذر المسلمين من الاستسلام لهم ، أما الكتاب الثانى ، فقد رأى أن جنايات الإنكليز عمت البشر كلهم ، ثم يعدد مثالب الإنكليز الذين يريدون أن يصيبوا كبد الهلال العثمانى والقرآن المجيد ، وأن الإنكليز ليسوا أعداء المسلمين فقط ، إنما هم أعداء الشرقيين عامة ، والإنكليز يكرهون الدولة العثمانية ، لأنها السبب فى حياة المسلمين ، ومن ألقى نظرة على عناوين الكتاب يتضح له مقدار هذه الكراهية ، ومن هذه العناوين : عاصمة الإنكليز وهيكل الظلم المشئوم ص ١٢ ، كيف يسعد الإنكليز بشقاء من تحت يدهم من الأمم والشعوب ، ص ٣٤ ،

---

(١٩) شعراء الحلة حـ ٣ ص ٢٠٥ – ٢٠٦ ، راجع العدد ١٦٤ من جريدة صدى الإسلام السنة الأولى ، لاحظ قصيدة أخرى له .

(٢٠) حبل الاعتصام ووجوب الخلافة فى دين الإسلام ، طبع فى بيروت سنة ١٩١٦.

(٢١) جنايات الإنكليز على البشر وعلى وعلى المسلمين خاصة طبع فى بيروت سنة ١٩١٦.

(٢٢) حبل الاعتصام ص ١٢٠.

إن الإنكليز أكبر الجناة على المسلمين ص ٦٠ ، الجنايات المتسلسلة والجرائم المركبة من الإنكليز إزاء المسلمين ص ١٠٨ ، ويضرب أمثلة على جور الإنكليز فى آسيا وأفريقيا ، ثم يلخص هدفه فى بيتين كتبهما على غلاف كتابه هما :

يا أســـارى الهـــوان قـوماً فقـوماً قـد عرفتم جـرائم الإنكليز
فمتى تحطمون للـذل قيـــدا مستعينين بالقـوى العـزيز ؟ ؟

معركة الكوت :

والحادثة الثانية التى أثرت فى الشعر العراق كانت معركة الكوت . وهى المعركة التى حصل فيها الأتراك على نصر ساحق . فبعد أن أخذ الجيش الإنكليزى فى احتلال أجزاء العراق الجنوبية سار بقيادة تاونزند لا يقف أمامه شيء باتجاه بغداد . ولكن الجيش التركى صمد له قبل أن يصلها واضطره إلى الانسحاب . وعقبه حتى وصل مدينة الكوت فتحصن فيها ، فأسرع الجيش التركى وحاصر المدينة . وقد طال أمد الحصار إلى خمسة أشهر حاول قائد الإنكليز بكل ما لديه من قوة الخروج من هذا الحصار ولكنه لم يفلح . كما حاولت السلطات البريطانية إمداد الجيش بالمؤن والذخائر لرفع معنوية هذا الجيش المحاصر . لكن المحاولات ذهبت أدراج الرياح . فقد نفدت الميرة التى بين أيديهم حتى اضطر المحاصرون إلى أكل لحوم البغال والحمير والخيل ، وبدأت معنويات المحاصرين تنحط يوماً بعد يوم . حتى اصطر القائد الإنجليزى إلى مفاوضة القائد التركى خليل باشا ، ولما لم يقدر على النجاة بشيء حطم معداته الحربية ومدافعه واستسلم للجيش التركى(٢٣).

كلف هذا الاستسلام الإنكليز حوالى ثلاثة عشر ألف مقاتل ما بين ضابط وجندى(٢٤) وقد جاء هذا الاستسلام عقب انكسارات متوالية منى بها الأتراك وقوات العشائر التى ساندتهم ، وبعد أن هدد الإنكليز بغداد نفسها . لذلك كان أثر هذا الانتصار عميقاً أخرج النفوس

---

(٢٣) للتفصيل يراجع الفصل السابع ص ٩١ – ١٠٠ من كتاب ولسن ومذكرات طاونزند

My Capaign in Mesopotania, by : Ch V. F. Townshend.

كما كتبت مجلة (العالم الإسلامى) التى تصدر فى الآستانة مقالا عن تاريخ حملة العراق بعنوان (النصر المبين فى العراق) فى عدد مايو ١٩١٦.

(٢٤) يذكر ويلسن تفاصيل عن الجنود والضباط ص ٩٩ ويمكن ملاحظة الصفحات ١٥٧ – ١٨٣ ج ٢ من كتاب

The Compaign In Mesopotamia 1914–1918. by : F. T. Moberly. London 1930.

من طورها ، أخرجها من الفخر والمباهاة بالنصر والتغنى بالموقعة إلى الزهو والغرور . وزاد معنويات الشعب والدولة العثمانية فسرت موجة الغبطة والسرور فى كل مكان .

إن دوى المدافع الذى كان يفزعهم ابتعد عن أسماعهم ، فبعد معركة سلمان باك أو المدائن[٢٥] التى دامت أربعة أيام بلياليها واستعمل فيها السلاح الأبيض تقهقر الإنكليز أمام ضغط القوات التركية الجديدة بقيادة خليل باشا ومحمد على بك .

وقد أجج هذا النصر فى قلوبهم الحماسة فسارعوا إلى تخليد هذا النصر الذى حازه المسلمون على المستعمرين فقال أبو المحاسن :

سرت نفحة الظفر العاطرة بأرجاء أوطاننا الزاهرة

ثم ذكر معركة سلمان باك التى أقرت عيون المسلمين ، الذين أخذوا حقهم من الأعداء وأدركوا ثأرهم منهم فقال :

فيا يوم سلمان أنت الذى جعلت وجوه الهدى ناضرة
وقد أدركت ثارها المسلمون فيك من الفئة الدائرة

ويتحدث عن أعمال القائد التركى الذى نظم خطة الانسحاب من أمام الجيش الإنكليزى ليضربه ويفقده المبادأة التى اضطرتهم إلى الالتجاء إلى الكوت :

وخادعت إنكلترا فى القتال فانخدعت وهى الساحرة

ويسائل الإنكليز علام جاءوا إلى العراق ؟ ألم يعرفوا المصير الذى ينتظرهم فيه ! ؟ وخاطب لندن قائلا :

أتيت العراق لنيل المنى وعدت على خيبة صاغرة[٢٦]

وقد وصف محمد رضا الشبيبى المعركة فقال :

تجاه إيوان كسرى مأزق ضنك أودى الرجال به والخيل والعير
كادت تميّز ذبا عن حقائقها فيه النفوس وتستقرى التصاوير
شأو تعاطت سباقاً دون غايته جرد البصائر والجرد المحاضير

(٢٥) كان قائد الجيش العثمانى فى واقعة سلمان باك « أو تل السور » نور الدين باشا ثم بقيادة خليل باشا ومحمد على بك .

(٢٦) صدى الإسلام ، ١٣١ – ١٣٥ ، وفى العدد ١٣٢ مقال نور الدين باشا وبسالته وما أحرزه من انتصار فى واقعة سلمان باك .

إن كان للخيل مضمار ومضطرب فكم خلت ثَم للرأى المضامير
قتلى « بدجلة » منها « دجلة » امتلأت و « النهروانان » والأنقاض والدور

ثم يصف خاتمة هذا النصر الذى حققه الجيش بقوله :

يوم أغَـر مـن الأيـام منبلـج وموقف فى سبيل الحق مأثور[٢٧]

كان سيد الموقف فى المعركة خليل باشا ، لذلك اتجه الشعراء إليه يزجون عبارات الحمد والثناء ، وكيف لا يكون سيد الموقف وها هو ذا قد أسر جيشاً بكامله ورفع معنويات الحكومة التركية بأسرها ، ومن هؤلاء كاظم آل نوح : فقد قال يحيي القائد خليل باشا الذى كان يحاصر الإنكليز الذين يلاقون ما لاقوه فى حرب الدردنيل ويدعو الله أن يتم النصر للجيش المسلم على الجيش الكافر المحاصر[٢٨] وفى قصيدة أخرى يحفز الجيش على الهجوم ويخوف الإنكليز من بلايا وقعاته ثم يخاطب القائد قائلا :

يا أيهـا القائد المحفوف فى أسـد تغدو لها الأسد أما تلقها بهمـا
لا تهدأ العين منا أو نـراك به قدرحت من جاحدى الإسلام منتقما
شـدد عليهم ولا ترعى[٢٩] لهم ذمماً فهم لنا لم يراعوا فى الوغى ذمـا [٣٠]

ثم يدعو للمسلمين بالنصر ولخليل بالفوز وللخليفة بطول العمر . وفى قصيدة أخرى يرى العدو قد دنس أرض العراق فيجب أن تطهر منه بالجلاء العاجل ولا تطهر إلا بالدماء لأن الجيش التركى لابد أن يفوز فى الحرب وكيف لا ينصر وهذا قائده خليل باشا الذى يسيطر على جيش الإنكليز وغدا تحت رحمته :

أسبيـل إلى الفـرار لمـن أمسى محاطاً بجحفـل جـرار
هو تحت الحصار مثـل بغـاث ترمق الصقر وهى فى الأوكار
أفينجو من المنيـة من قـد بات تحت الأهـوال والأخطـار

---

(٢٧) الديوان ص ٣٠ ويلاحظ قصيدة حسن التى الدورى فى جريدة صدى الإسلام العدد ٤٦ يحيي فيها انتصار الجيش ، وقصيدة لليعقوبى فى العدد ١٧١ يتطرق إلى واقعة سلمان ، وقصيدة الزهاوى العدد ٢٦٢ صدى الإسلام والعدد ٢٦٢ يخاطب سلمان باك .

(٢٨) جريدة صدى الإسلام العدد ١٥٧ .

(٢٩) كذا . . بالأصل .

(٣٠) صدى الإسلام ١٦٤ السنة الأولى .

إن نجـا من جيوشنا كيف ينجو من شبا عـزم فحلهـا الهـدار
صاحب الحزم والثبات « خليل » يـوم حـرب والفـارس المغـوار

ومادام الجيش الإنكليزى فى الحصار لا يقدر على أن يفك نفسه برغم قوته وعديده وقد أسلم نفسه للحصار ولم يقاتل فى الصحراء فقد لطخ نفسه بالذل والعار لأن معارك الرجال تكون فى خارج المدن لا داخلها فقال :

ما لجيش العدو فى الكوت أضحى فرقا جائساً خـلال الديـار
إن يكن مصحرا فما من عـار إنمـا العـار وهو تحت الحصار[٣١]

وأخيراً استسلم الجيش الإنكليزى بعد أن فقد أمله وبعد أن انتظر طويلا مؤملا النجاة ، وبعد الاستسلام أخذ الأسرى سيراً على الأقدام إلى الأناضول فمات فى الطريق من مات مرضاً أو جوعا[٣٢] .

وعندما استسلم الجيش الإنكليزى بعد حصاره الطويل أقيمت الاحتفالات فى كل مكان فى المدارس والسرايات والشوارع ، وكانت مجالا لإلقاء القصائد والمقالات والخطب وقـد سجلت بعضها جريدة (صدى الإسلام) ومن هذه القصائد قصيدة لعبد الرحمن البناء يقول فيها : إن استسلام الإنكليز هو غاية كل مسلم لأن الملك لا يكون إلا للمسلمين وللخليفة وقد رفع خليل باشا رأس أهل العراق بهذا النصر وخاطب القائد فقال عنه إنه (مقدس القدر) له (رأس كالبدر لا يرقى إليه) وأن الإنكليز جاءوا لاستعمار العراق ولكنهم باءوا بالخيبة والخذلان ، فهذا قائدهم أصبح طائعاً ذليلا صاغراً هصره الألم والهم وهاضت جناحه الذلة والمسكنة :

أطـاعك جيش الإنكليز وهـذه هى الغاية العظمى إلى كل مسلم
أتى طائعاً بعد الحصار مسلماً إليك بوجه حالك اللون مظلم
يقاسى الأسى بل كاد يخنقه الأسى ويغضى على أنف من الذل مـرغم
لقد ظن أن الكوت يحمى جنوده وينحيه من باس الخميس العرمرم[٣٣]

وظهرت فى شعر عطاء الله الخطيب بادرة جديدة يجدر بنا التنويه بها ، هى الاعتداد

---

(٣١) صدى الإسلام ١٧٣ السنة الأولى .
(٣٢) ويلسن ص ١٠٠ .
(٣٣) صدى الإسلام العدد ٢٤١ السنة الأولى .

بالعرب وبالشعور القومى ، فرأى أن للعرب حقًّا فى هذا النصر لأنهم شاركوا الأتراك فى هذا الحصار وكان لهم دور فعال ، ولم يخص العرب بمثل هذه الالتفاتة غيره ، فبعد أن افتخر بانتصار الهلال قال إن حزب محمد هو الذى انتصر وأن الهلال كالخنجر الذى طعن الخصم ، ثم عير الإنكليز بخسران معركتهم فى الدردنيل والكوت فقال :

أسـود من الأتراك والعرب مالهم ... سوى السيف من خل وفى مواصل
فكـم طوقوا جيد الزمان بعزمهم ... وكم أطلقوا كفا ببذل ونائل
كماة إذا استافوا الطـلا فشرابهم ... عصير نفوس الشوس لا خمر بابل

إن قوله «أسود من الأتراك والعرب» شيء جديد بالنسبة للشعراء الذين يذكرون أبناء عثمان ، وآل عثمان والدولة العثمانية والدين الإسلامى فى شعرهم ، وهذا دليل على تسرب بوادر الروح القومية فى النفوس ، وأن العرب بدءوا يفكرون تفكيراً خاصًّا بهم ، ويوضح ذلك قوله :

أتونا وقـد ظنوا العراق وأهلـه ... رقـودا كما الأمـوات رقدة غافل[٣٤]

ولم يكتف الشعراء بمهاجمة الجيش الإنكليزى الذى دخل العراق وإنما تطرقوا شأن الشعر العربى عامة إلى مواضيع مختلفة ، منها مدح القادة الذين تولوا هذه الحروب وقد مدحوا السلطان رشاد بهذه المناسبة لأنه القائد الأعلى ولأنه حامى المسلمين ، متخذين من الروح الإسلامية سبيلا لهذا المديح ، ولعل القائد خليل باشا الذى كان رجل الساعة قد ظفر أكثر من غيره بالثناء لأنه كان قرب سمعهم وبصرهم ، فمن هؤلاء الشعراء كاظم آل نوح ، فبعد أن هاجم الإنكليز الكافرين الذين جاءوا لمهاجمة المسلمين مدح السلطان الذى أرسل خليل إلى العراق قال :

دام سلطاننـا الذى فـه تحمى ... بيضة الدين صاحب الإكليـل
دام للمسلمين حصنـاً منيعـاً ... إذ به أصبحوا بظل ظليـل[٣٥]

أما السيد عبد المطلب الحلى فقد كان فى ساحة القتال ، فأخذ يستنفر شعور المجاهدين ضد الإنكليز الذين وطئوا أرض العراق وقد ظهرت آثار الفرحة واضحة على شعره ، فقد

---

(٣٤) صدى الإسلام العدد ٢٤٥ السنة الأولى .
(٣٥) صدى الإسلام ١٥٧ السنة الأولى .

أرسل البشرى إلى جميع أبناء الشرق دون تفريق ، وتم هنأ خليل باشا بفتح الكوت وأخذ يذكر المجاهدين بالانتصارات التى حازها الجيش العثمانى فقال :

بنى الشرق طراً من سباتكمو هبوا ... هفت لكم البشرى فقد فشل الغرب
بفتح به قرت من الدين عينه ... وسرت به الأتراك والعجم والعرب

وامتدح خليل باشا قائلا :

« خليل » العلى ترب الظبابل أخو الحجى ... وحلف الوغى أن أحجم البطل الندب
له راحة يوم الوغى تمطر الدما ... ويوم لقاء الركب نائلها سكب
هو الأسد العادى إذا صرت الوغى ... بأنيابها والضرب يتبعه الضرب

ثم تحدث عن القائد الإنكليزى الذى أجبره القائد التركى على الاستسلام جوعاً وأن حرب الجوع أقوى من حرب السيوف ، وبالرغم من أننى لا أتفق معه على هذه الفكرة فأنا لا أناقشها لأنها فكرة آتية اضطر إلى تبريرها الشاعر بقوله :

فحاربهم بالجوع حتى تساقطوا ... ألا إن حرب الجوع حقًّا هى الحرب[٣٦]

ومن رجال الدين الشعراء الذين هاجموا الجيش الإنكليزى محمد على اليعقوبى ، فقد كانت دولة إنكلترا دولة عظمى كبيرة العدد والعتاد والاستيلاء على جيشها وحصاره كان شيئاً كبيراً مهمًّا . لذلك كان الانتصار عليها انتصاراً يتمشى مع هذه العظمة ، فلا عجب أن يخلد حصار الكوت فقال من موشح له :

لله جيش المسلمين المنعوت ... كل حجى قد عاد منه مبهوت
صال على إنكلترا وهى الحوت ... ولم يزل يطردها حتى الكوت
من بعد ما جاست خلال سلمان

ويسخر من بريطانيا التى رامت فتح العراق وكان الأولى بها حماية عاصمتها لندن التى هاجمها الألمان بالمنطاد زبلن ، وقذفها بالقنابل والنيران فأحرقها ! ولا أظن أن لهذا الخبر من صحة لأن المنطاد سريع العطب إذا ما أصيب بطلقة فكيف يقذف النيران والقنابل ، ولكن الشاعر أراد أن يأتى بكلمة زبلين لضرورة القافية وأراد الطيارة والمعنى

(٣٦) شعراء الحلة جـ٣ ص ٢٠٦ ، وله قصيدة أخرى فى العدد ١٨٠ وقصيدة أخرى لكاظم آل نوح يمتدح خليل باشا ، صدى الإسلام العدد ١٦٤ ، وله أيضاً فى العدد ١٧٥ مؤرخا ، وله قصيدة يخاطب الجيش العدد ١٩٠ .

يكاد يكون مبهماً فى البيت الأول :

قد عز يا إنكلترا ما تبغين ... وراءك اليوم عن المعصومين
ليس العراق مثلما تظنين ... فلندن حام عليها زبلين
يقذفها قنابلا ونيران[٣٧]

وقد نظم على البناء قصيدة يمتدح بها خليل باشا وفيها مدح السلطان رشاد ذاكراً أعمال خليل باشا فى سلمان باك وفى الكوت ومن ثم يقدم التهانى للمسلمين جميعاً منها :

لتهنأ بهذا ملة الدين إنه ... سرور بنى الإسلام فى كل ذى قطر
وتكسى فخاراً آل عثمان سرمداً ... بما فيهم قد شد للدين من أزر
وسلطانها الغازى (رشاد) عمادها ... وفخر بنى الإسلام لا بل مفخر الفخر[٣٨]

وقد امتدح محمد مهدى البصير وزير الدفاع أنور باشا بقصيدة بعد معركة الدردنيل قال فيها إنه صان تاج الخلافة وأمن الخائف من أبناء الأمة وبذل جهده فى سبيل الإصلاح ورفع الظلم عن أبناء الشعب فقال :

عقد الإله لواك فهو مظفر ... بالنصر ما بين الممالك ينشر
وأطال عنق الدين سيفك إذ غدا ... فى حدّه باع العدو يقصر
يا صائنا تاج الخلافة والذى ... فيه أقيم سريرها والمنبر
مثل الخليفة من يكون محكماً ... بين العباد ومثلك المستوزر
مهدت هذا الشعب ملتمساً له ... إصلاحه فيما تسر وتجهر
آمنت خائفة ورعت مخيفة ... تنهى به عما تشاء وتأمر
كم من يد أسديتها لك أو جبت ... شكر الأنام ونعمة لا تكفر
كم ظلمة للظلم أنت جلوتها ... وبنور عدلك أشرقت يا (أنور)
كم وقفة لك دون ملة أحمد ... فيها برأيك بل بسيفك تنصر

---

(٣٧) صدى الإسلام ١٧١ السنة الأولى . لعله أراد من (وراءك) ارجعى عن المعصومين بعناية الله ، وللبناء قصيدة يهنيه برتبة اللواء العدد ٢١٥ وقصيدة لإسماعيل رئيس بلدية البغيلة العدد ٢٦٩

(٣٨) صدى الإسلام العدد ٢٦٦ السنة الأولى .

وتطرق إلى سهره على راحة الشعب وأمنه فقال :

كم ليلة ليـــلاء أنت سهرتهـــا لتنـــام حولك أعين لا تسهر[٣٩]

ولما وصل أنور باشا بغداد وامتدحه ذاكراً نصر المسلمين ومعتبراً زيارته جهاداً فى سبيل الله والمسلمين ، وأشرق بقدومه النصر الذى يرافقه أين ارتحل فأصاب الإنكليز الخزى وأضر بهم الحصار والأسر وغدت وجوه المسلمين مشرقة المحيا ناضرة غبطة وسروراً فقال :

أنار حمى بغداد مذ جاء (أنور) بوجـه عن الأقمار أبهى وأنـور
أتى وهـــلال النصر وسط لوائه يهلل بالبشرى لـه ويكبر

ووصف حال الإنكليز وحال المسلمين بقوله :

أتيت وعيش الإنكليز مكـــدر وعيش بنى الإسلام ريان أخضر

ثم قال له : إنك جئت إلى بغداد لكى تروع الإنكليز والروس ولكن الجيش الإنكليزى جاءك أسيراً ذليلا طائعاً :

أتيت لـردع الإنكليز وروسهـا فوافاك جنـد الإنكليز يؤسر[٤٠]

أما جميل صدقى الزهاوى فقد نظم قصيدة طويلة لم تتمكن الجريدة من نشرها إلا فى أعداد متتالية [٤١] خاطب بها الجيش العثمانى ثم قال إن أنور باشا ما اختار خليل باشا إلا بعد أن عجم عيدان قواده فوجده أشدهم قوة ومراساً ثم خاطب أنور باشا قائلا :

أأنور أنت اليوم درع لأمـــة يحاربهـــا ثلثـــا الأنام وأكثر
وأنك سيف الله يمحو به العدى ويخـــذلهم حتى يمـــوت التجبر
قـدمت على رحب لبغـــداد إنها لفضلك فى هـذى الزيارة تشكر
ليهنك أن الفوز فى الكوت شامل وأن فريق البغى أصبح يؤسر

---

(٣٩) صدى الإسلام العدد ١٨٣ وذكرت صدى الإسلام فى عددها ٢٢١ السنة الأولى أن العرب فى أمريكا اكتتبوا بمبلغ كبير لشراء سيف ثمين يقدم هدية لأنور باشا .

(٤٠) صدى الإسلام ، العدد ٢٥٥ ، السنة الأولى .

(٤١) صدى الإسلام ، الأعداد ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، وقد سبق الإشارة إلى هذه القصيدة فى معركة الدردنيل .

ويقدم التهانى للجيش الذى فدى بنفسه فى سبيل الوطن ثم يهجو الإنكليز بقوله :

وما هذه فى الـدهر أول مرة رأى الحق فيها الإنكليز فأنكـروا
بغـوا مـرة من بعد أخـرى فنالهم أذى البغى والتـاريخ أمر مكرر

ويعدد أعمال الإنكليز فى كل مكان ويمتدح الجيش الألمانى ويحيى الموتى من المسلمين ويتطرق إلى واقعة سلمان باك وكيف تم النصر للمسلمين بعد معركة حامية ، والطريف منها وصفه للطائرة فى قوله :

وقالوا : بدت طيـارة ستصبها قذائف من صهـواتهـا تتفجـر
أقلب طرفى فى السماء فـلا أرى سوى نقطة سوداء تخفى وتظهـر
دنت فإذاهـا كالعقاب تقلها محركة بالنـار تغلى وتـزفر
نصبنا إليهـا مدفعاً فأصابها وخـرت على آلاتهـا تتكسر(٤٢)

ومن الطريف أن نختم هذا الفصل بقصيدة نظمت على لسان أنور باشا بعد أن خسرت الدولة العثمانية الحرب واحتل الإنكليز العراق ، يتهكم الشاعر ويسخر بها من أنور باشا والقصيدة صورت نفس أنور بأسلوب لطيف ، صورت جشعه ورغبته فى جمع المال على حساب الأمة التركية ليرضى قيصر ألمانيا دون الاهتمام بجوع الأمة وأوجاعها ، ويزيد الموضوع طرافة أن ناظمها هو محمد مهدى البصير الذى مدح أنور باشا إبان الحكم التركى قال فيها :

رجـوت بموقفى فـوزاً مبينا فسقت لك العـذاب به مهينـا
ربحت بك المواهب والعطـايا فبت مع الشعوب الأخسرينـا
إذا الدينـار أسمعنى رنينـا فديت لصوته منك الأنينـا
أصبت رضـاه قيصرى المفـدى فـأهون بالرجال الساخطينـا(٤٣)

ويصف ما أصاب غليوم من الرعب غداة الانكسار فقال إن تركيا قد بيعت للألمان ولكن بأرخص الأثمان . وأن الخطة التى اتبعها كانت خطة خاسرة كاسدة(٤٤)

---

(٤٢) صدى الإسلام عدد ٢٦٢ .

(٤٣) دار السلام العدد (١٨) السنة الأولى ١٩٢٨ وقد قالت المجلة فى عددها العاشر المجلد الرابع سنة ١٩٢١ أن أنور باشا كان راكباً طيارة تشق به عباب الفضاء فى ديار رومية فسقطت به الطيارة فمات ولاحظ العدد الرابع من المجلد الثالث سنة ١٩٢٠ بأن طلعت وجمال ذهبا راكبين بطيارة إثر أنور فسقطت بهما الطيارة وأسرا فى بولونيا .

(٤٤) للبصير قصيدة عن حياة غليوم فى العدد الخامس المجلد الثالث من دار السلام سنة ١٩٢٠ تطرق فيها إلى أعمال غليوم واحتلاله للدول المختلفة .

والويل للمغلوب ، إذ تنقلب جميع أعماله إلى سيئات ولا تظهر حسناته التى أبرزها الشعراء أنفسهم فى حياته . وقد تكررت ظاهرة مدح البارزين وهجائهم فى الشعر العراق الحديث . ولا لوم على الشعراء فى ذلك ، فهذه طبيعة الشاعر التى تهزه الأحداث فيندفع معها خاصة إذا كان الحديث يمس مصالحه الفردية . كالخوف من أذى السلطان أو الرغبة فى الجاه والمال . ويظهر إبداع الشاعر متى اتصلت القضايا العامة بمصلحته الشخصية ، ويشجع الشعراء على التقلب التخلخل العام فى المثل الأخلاقية ، ومتى جاءت رغبة الشاعر متسقة مع رغبات الجمهور معبرة عن أكثرية ساحقة اشتهر الشاعر وارتفع صيته .

فتح بغداد :

بعد أن حاصر الأتراك الإنكليز فى الكوت وبعد استسلام القوات الإنكليزية للجيش العثمانى تبدلت معنويات الجيش العثمانى ، وارتفعت ارتفاعاً خرج عن حده ، وخاصة القائد التركى (خليل باشا) ، فبالرغم من وجوده فى ساحة القتال ، وكانت قوات العدو تحتل جزءاً من العراق لم يتابع القتال لإخراجهم نهائياً منه ، وإنما ملأت الغبطة أعطافه وأخرجته إلى الغرور فرفض كل المساعدات التى كانت تريد أن تقدمها له الجهات العليا فى الآستانة معتقداً أنه سوف يدحر كل القوات الإنكليزية الجديدة التى تحاول التقدم إلى داخل العراق ، ولم يكن أنور باشا (القائد الأعلى) يطمئن إلى هذا القرار ، لذلك أكد له وجوب المساعدة ، إلا أنه سخر من الإنكليز واستخف بهم ، وترك الأمور تجرى دون استعداد . أما الجيش الإنكليزى فكان يعزز قواته خلال ثلاثة أشهر بالمدد والذخيرة مستفيداً من الأغلاط التى ارتكبها فى حصار الكوت حاسباً حساباً دقيقاً لكل المفاجآت ، وعندما استكملت القوات الإنكليزية عدتها بدأت بالزحف فاندحرت القوات التركية أمامها متكبدة الخسائر الفادحة حتى اضطر خليل باشا إلى ترك بغداد ، لأنه لم يستطع الدفاع عنها فدخلها (مود) دون مقاومة فى ١١ مارس سنة ١٩١١ . ثم أخذت القوات الإنكليزية تتبع فلول الجيش التركى لإتمام احتلال العراق كله . ولم تجد المحاولات التى بذلها خليل باشا لوقف الجيش الإنكليزى ، كما أن القوات التركية لم تتمكن من الوصول[٤٥] إلى العراق

---

(٤٥) ألف الأتراك جيشا أسموه جيش الصاعقة لاسترجاع بغداد . وكان يؤمل أن يكون أحد قواده مصطفى كمال باشا وأن تكون القيادة لجنرال ألمانى أعطيت له رتبة (مشير) مذكرات العسكرى ص ١٦٨ كما يلاحظ ١٥٤ – ١٥٧ ولاحظ بهذا الشأن الفصل ٣٧ مجلد ٤ ص ٩ من The Compaign In Mesopotamia 1914- 1918.

لإنجاده[٤٦] وبعد احتلال بغداد توفى الجنرال مود[٤٧] فأخذ القيادة القائد مارشال وأخذ يتقدم حتى أعلنت الهدنة ، وكانت الموصل تحت سيطرة الجيش التركى .

هذا موجز سريع لحركات الجيش الإنكليزى فى العراق وسنرى أثرها واضحاً فى الشعر العراق الحديث ، فمن أهم آثارها بعد حصار الكوت ، كان فتح بغداد ، فقد وقف الشعراء من احتلال بغداد مواقف مختلفة ، فمنهم من ندب الأتراك ، وبكى أمامهم ، وآلم فراقهم ، مدفوعين بدافع الدين والوفاء العربى الإسلامى ، وقسم آخر من الشعراء أذهله هذا الفتح فحار فى أمره ، فلم ينظم شيئاً من الشعر ، أى أنه وقف موقف المحايد ، ولعله خشى عودة الأتراك ، أو أن الاحتلال الإنكليزى ، لم يكن مرغوباً فيه لأنه احتلال أجنبى ولأنه مستعمر لا تربطه أية رابطة بالعراقيين ، دخل البلاد بالحديد والنار والدم وقلب الحياة العامة رأساً على عقب ، وقد وصف بعض هؤلاء الشعراء العراق وما حاق به ، وبغداد وسقوطها بصورة خاصة ، ومنهم من هاجم الأتراك مهاجمة عنيفة وسخر من قواتهم ومن هزيمتهم فى بغداد وتبعثر جيوشهم .

ومما يؤسف له أن كثيراً من شعر هذه الفترة قد ضاع أو أتلف عمداً ، ولكن الأثر الباقى يعطينا صورة واضحة عن حالة الاضطراب والحيرة والقلق النفسى لشعراء هذه الفترة كما عكس لنا النفسية البشرية ، فى وفائها وتملقها ونفاقها وخضوعها للقوة ومداهنتها للمستعمر البغيض ، متناسية كيف كانت بالأمس تسبح بحمد الأتراك ، وتلعن الإنكليز على محاولتهم احتلال العراق .

وقد مثل الرصافى الوفاء الإسلامى نحو إخوانه العثمانيين المسلمين ولم يتلف قصيدته أو يحذفها من الديوان مع أنه لم يسمح بنشر قصائد له فى الديوان سبق أن نشرت أو نظمت فى مناسبات مختلفة ، ورجا الأستاذ مصطفى على أن يدونها فى الديوان الذى طبع فى بيروت ، فأعطانا الرصافى مثلا فى الوفاء والشجاعة ، فلم يجبن عن نشر قصيدته فى ديوانه خشية أن يعاقب من الحاكمين أو أنه كان يطمع فى عمل يتزلف به لهم .

---

(٤٦) Loyalties Mesopotamia P. 228 Vol. 1
ويلاحظ الجزء ١٥ من المعلمة البريطانية ص (١٠١) ولعل خير مرجع للحرب فى العراق
Mesopotamia Compaign 1914–1918 P. P. 212–250 Vol. 3.

(٤٧) يلاحظ ويلسون ص ٢٦٠ – ٢٦٤ ويلاحظ ٢٧٥ ما أشار إليه المؤلف .

وقصيدة الرصافى ، نظمها يرد بها على سليمان نظيف الذى كان والياً فى العراق وقد أحبه العراق لأنه قضى جزءاً من حياته فيه ، وقد لام العراقيين لأنهم لم يساعدوا الجيش العثمانى فى الدفاع عن العراق ، فأجابه الرصافى على لسان دجلة قائلا :

هى عينى ودمعها نضاح ... كل حزن لمائها يمتاح
كيف لا أذرف الدموع وعزى ... بيد الذل هالك ممتاح

وقد ألقى تبعة ترك بغداد على الأتراك الذين تركوها بيد العدو وخرجوا بسرعة ، وفى هذا إشارة لطيفة مؤدبة من الشاعر الرصافى ، على عدم استبسال الأتراك فى الدفاع عن العراق فقال :

أين أهل الحفاظ هل تركونى ... نهبة ، فى يد العدو وراحوا
برحوا وادى السلام عجالا ... أفجد براحهم أو مزاح
ما لهم يبعدون عنى انتزاحا ... وعزيز منهم علىّ انتزاح

ثم يصور الرصافى ألم دجلة لفراق الدولة العثمانية وكيف يتنهد هذا النهر ألماً وحسرة لهذا الفراق ، وكيف تنساب دموعه غزاراً فقال :

فمياهى هى انسكاب دموعى ... وخريرى هو البكا والنواح
أو ما تبصر اضطرابى إذا ما ... خفقت فى جوانبى الأرواح
ليس ذا الموج فىّ موجا ولكن ... هو منى تنهد وصياح

ويختتم قصيدته ببيتين جميلين فيهما النجوى والحنين إلى الأتراك بقوله :

أنا باق على الوفاء وإن كا ... نت بقلبى ممن أحب جراح
فإليهم ومنهم اليوم أشكو ... بلغيهم شكايتى يا رياح[٤٨]

أما الموالون للسلطات المحتلة ، فلم يكن ليجرؤ أحدهم على نشر اسمه الصريح فى الجريدة التى أنشئت فى بغداد لنشر الدعوة لهم والتغنى بأمجادهم ، فى عددها الأول زعمت أن إنكلترا محررة العرب[٤٩] بل كانوا ينشرون قصائدهم بتواقيع مستعارة ليتستروا على السير فى ركب الاستعمار

---

(٤٨) الديوان ص ٤١٠

(٤٩) عددها الأول الصادر فى ٤ تموز ١٩١٧ .

الجديد خوفاً من القول بأنهم موالون للمستعمرين ، وأنهم خونة يمجدون الاستعمار ، والاحتلال الأجنبي وقد تجرأ الزهاوى وحده على نشر اسمه صريحاً ، إذ أراد أن يرد الأمن لقلبه ، والطمأنينة إلى روحه ، بعد أن هجاهم بقصيدة زمن العثمانيين فأراد أن يكفر عن سيئته لكنه أمعن فى إذلال نفسه فى امتداحهم والتقرب إليهم .

وقد نشرت قصيدة بتوقيع « ابن ماء السماء » نظمت إثر سقوط بغداد بيد الإنكليز حاول الشاعر أن يكون مؤرخاً ومصوراً فقد وصف ساعات الاضطراب والفوضى التى حلت ببغداد بعد انسحاب الأتراك ناعياً عليهم أيام حكمهم فقال :

ما بال بغداد قد ضاقت بها الحال ... وخف بالأهل منها اليوم ترحـال
بالأمس كانت بقايا الجند رابضة ... فيها وللناس أشغال وأعمـال
وكان للترك فوضى من تجبرهم ... واليوم للترك لا قيل ولا قال
كانت بهـا غرفات الظلم شامخة ... ما أصبح الصبح إلا وهى أطلال

وقد وصف الشاعر ليلة سقوط بغداد وما اعترى الناس من خوف وهلع ومشاركة الطبيعة فى زيـادة هذا الخوف بهبوب عاصفة ترابية ووصف اللصوص وهم ينهبون ويسلبون ، وقد تفردت القصيدة بناحية طريفة هى تصويرها النفسى لمشاعر الناس الخائفين واضطرابهم . بعد أن فقد الأمن والنظام فى البلدة ، ورسم الحيرة التى كانت تعلو وجوه الناس فى هذه الليلة . فهم لا يعرفون أين يذهبون وأين سيكون الملجأ ، بعد أن خرج الأتراك من بغداد واعتزم الإنكليز دخولها . وهم كافرون مستعمرون أسيأمنون على أرواحهم وأعراضهم وأولادهم وأموالهم ! ؟ هل سيفتك بهم هذا الجيش الداخل بلدهم ؟ فالهروب من الموت والخوف على الأطفال والجزع من الفضيحة ، كلها أمور أخذت تنتاب هذا الشعب الذى ابتلى بالاستعمار . وساعد على هذا الهلع جماعة من أبنائه الذين اغتنموا هذه الفرص لإشباع رغباتهم فى السلب والنهب فقال :

ليل السقوط بدا بالنحس طالعه ... تصادمت فيه بالأهوال أهـوال
ريح ورعد وبرق واصطدام وغى ... كأنمـا ازدحمت فى الأفق آجـال
للسلب والنهب بين الناس معترك ... لـكن قتلاهم فى السوق أمـوال
من فوقهم صاعقات الحرب نازلة ... وهـد بنيانهم من تحت زلـزال
وللمدافع رعد فى سمائهم ... تكاد منـه عقـود النجم تنشـال

وللرصاص صفـــير فى مسامعهم وللخيالات فى الأفكار أشغـال
وللرجال من الإرهاب زمجـرة وللنساء ابتهـــالات وإعـــوال

وقد ظهرت الصور الإنسانية والعواطف المضطربة ، فى وصف الشاعر لسيدة تقود طفلها وهى تركض فى الشوارع حيرى ، تبحث عن ملجأ تقر فيه ، وتسكن إليه ، وهى وحيدة ليس لها من تلوذ به ، فأخذ يواسيها فى محنتها ويلواها لأن الجميع مشغولون بأنفسهم يريدون الفرار بأنفسهم ، وبأرواحهم راكضين ذاهلين بلا وعى ولا شعور ولا إرادة . لأن نيران الحرائق التى تلتهم الأبنية والبيوت تزيد فى الهلع والخوف فقال :

لاحت لى امرأة فى السوق ماشية ودمعها فوق صحن الخد هطال
تقـود طفلا صغيراً وهى صارخة رحماك رباه قد ضاقت بى الحال
وقد غدوت عن الدنيا مجـــردة لا والد لى ولا عم ولا خـــال
ولا شقيق ولا زوج ولا صلـة ترجى ولا لى بهـا دار ولا مال

ثم يحدثها الشاعر ويسليها ويعزيها ويبشرها بتحرر العرب من الأسر التركى ونيلهم مطالبهم ، لأن الإنكليز يعرفون للعرب حقوقهم لأنهم يحترمون أصدقاءهم . . ويبدو أثر الافتعال على القصيدة والتظاهر بالقوة والرجولة ، فبعد أن وصف البناء ليلة سقوط بغداد وشغل الناس بأنفسهم . أراد إثارة العاطفة الإنسانية فى النفوس ، فوفق إلى هذا لكنه هبط هبوطاً واضحاً عندما ادعى أنه وقف وأخذ يحادثها ويبعث الثقة فى نفسها ولو قال إنه أخذ يركض معها لينقذها من النيران ومن القنابل ومن أرجل الهاربين لكان فى ذلك بعض الصدق وكان تمثيلا للواقع ، إذ أن موقف الرعب الذى وصفه فى مطلع قصيدته لا يتفق وهذا المشهد لأن الإنسان عند اندلاع النيران ومهاجمة الموت لا يقف ويتحدث وإنما يتبع عقله اللاواعى فيركض لينجو بنفسه من الموت . بيد أن البناء جانبه الواقع ولم يقدر أن يلائم بين أجزاء القصيدة وقد جره إلى ذلك رغبته فى التخلص إلى مدح الإنكليز حينما سارع إلى التزلف إليهم وإسباغ الثناء عليهم قبل أن يثق بهم ويجربهم . فقد نشر قصيدته فى جريدتهم بتوقيع مستعار وأراد أن يمتدح العرب فأساء إليهم لأنه قال إن إسارهم فك ببعد الأتراك عن العراق وإن العرب قد حصلوا على مطالبهم بفضل الإنكليز ومساعدتهم للعرب ، كما شوه الصورة الإنسانية التى رسمها للسيدة ولطفلها لأنه حشر مدح الإنكليز حشراً فقال :

ألست من أمة العرب الألى نجحوا وفك عنهم ببعد الترك أغلال
فاستبشرى إنهم نالوا مطالبهم بفضل قوم لهم فضل وأفضال
الإنكليز هم ما خاب صاحبهم ولا هم بحقوق العرب جهال

ثم يصف الشاعر هزيمة الأتراك إلى جبل حمرين وفضل هذا الجبل عليهم إذ لولاه لأفنى الإنكليز جمعهم وأبادوهم . . ثم يهاجم الأتراك الذين جحدوا النعمة وابتعدوا عن الهدى راكنين إلى الظلام مبتعدين عن الحق فقال :

الترك قد تركوا بغداد وانهزموا من بعد حرب لها قد شيب أطفال

ثم يقول :

لولا الموانع من « حمرين » تمنعهم لم يبق منهم بهذا القطر خيال
أهلهم موقف ضاق الزمان به ذرعاً وليس له فى الدهر أمثال
لأنهم جحدوا النعمى وما شكروا وعن طريق الهدى فى غيهم مالوا
عالوا على العرب فى تبعيدهم فغدوا كأنهم فوق رعن الطود أوعال

أسلوب الشاعر ليس من الأساليب العالية ولا شعره من المتانة ما يصل به إلى الشعر المقبول ، وإنما نستشهد به لأنه سجل لنا هذه الفترة تسجيلا واضحاً (٥٠) وقد تطرق فى القصيدة إلى حوادث معينة مثل نسف باب الطلسم – أحد أبواب بغداد القديمة – إذ اتخذ مخزناً للبارود ، فلما أراد الإنكليز دخول بغداد نسفه الأتراك قبل الانسحاب منها . وتحدث عن تاريخ بناء الباب الذى كان جزءاً من سور بغداد فهاجم الأتراك الذين نسفوا هذا البناء التاريخى .

ومن القصائد التى نشرت فى جريدة العرب قصيدة ابن الفراتين التى وصف فيها رحى المعركة التى دارت بين الأتراك والإنكليز والتى أدت إلى استعمال السلاح الأبيض . والقصيدة بعيدة عن روح الحقيقة ، ولم تدر مثل هذه المعركة بين الإنكليز والأتراك إنما أخلاها الأتراك دون مقاومة (٥١) ولكنه شاء أن يحلق فى خياله الشعرى فاختلق هذه المعركة ، وتصلح القصيدة أن تكون لمعركة من معارك الحرب العظمى ، فقد حدثت مثل هذه الالتحامات بين الجيوش ،

---

(٥٠) جريدة العرب الأعداد ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، من شهر أيلول ١٩١٧ م وقد نشرتها الجريدة فى الصفحات الأولى وأعيد نشرها مع بعض التغيير فى (ذكرى استقلال العراق) ص ٦٣ – ص ٦٨ المطبوع فى بغداد ١٩٢٧ م.

(٥١) العسكرى فى مذكراته ص ١٥٠ – ١٥١.

ولعله أراد رسم صورة لإحدى هذه المعارك أو أنه وصف معركة رآها بنفسه وبقى أثرها فى اللاشعور وظهرت بهذه المناسبة مع إضافة شىء يناسب الحادثة التى حدثت فى بغداد ، أو أنه نظم القصيدة قبل سقوط بغداد فليس فى القصيدة من حادث معين يشير إلى سقوط بغداد سوى العنوان وهى تصلح أن تكون لأى معركة قال :

تقلصت شوكة الأتراك فى أفق ... دامى الذبول صريع الرجم ملتهب
تضمه الزعزع النكباء مشفقة ... تكاد تخطفه من موقف العطب
وعندما اتصل الجيشان والتحما ... بكل أشعب خواض الوغى درب

ثم وصف المعركة المستعرة بقوله :

وأوغل الطعن فى جذر النفوس وقد ... تسعرت ناره فى النبع والغرب
واصفر ثم أكف البهم صائلة ... واحمر حد السلاح الأبيض الذرب[٥٢]

ويتحدث عن انسحاب الأتراك بعد أن حامت الطيارات فوق جيوشهم مضطرين متقهقرين . ثم يدخل الموضوع بعد جولة طويلة ويصف نسف باب بغداد وأثر النسف فى الناس وما حاق بهم ووصف اللصوص وهم يسرقون وينهبون ويهرولون نحو السوق يحدوهم الجشع والطمع والشراهة فقال :

فأضرموا النار فى بغداد من حنق ... كأن بغداد ردتهم على العقب
وفرقوا مؤناً للحرب فانفجرت ... تواصل النسف فى الأبراج والقبب
فهزت الأرض زلزالا صواعقها ... كأنما الأرض مهد الخطب والغضب
فالناس أمسوا سكارى حيث ليس لهم ... إلا الجنون وليس العقل من زقب
خارت قوى الحس فيهم حيث لم يجدوا ... لا للحياة ولا للموت من سرب[٥٣]

ولم يكتف الشاعر بمهاجمة الأتراك وتعنيفهم بل أخذ يتهمهم بالكفر والشرك ويعيرهم بأجدادهم الذين يعبدون الثور ، ويذكر ما صنعه المغول وجنكيزخان من الفضائح مذكراً الأتراك بدعوتهم الطورانية التى مزقت المسلمين شر ممزق ، ففقدوا عطف الأمم الإسلامية والعربية معاً ، وقال متهكماً :

---

(٥٢) جريدة العرب العدد ١١ ، وفى العدد ١٠ ما يؤيد بأن القصيدة نظمت لغير هذه المناسبة وقد تحدث فيها عن مشانق ومن شنق من أحرار العرب .

(٥٣) جريدة العرب العدد ١٥ السنة الأولى والعدد ٢٠ سنة ١٩١٧ م ذكر لهروبهم إلى سامراء .

رب المغول هو الثور الذى انتظمت ... جماجم الصيد قهـرا منه باللبب
أيديه تربو على العشرين حاملـة ... أعضاء إنسان أو آلات محترب
هو الذى أرشد الأتراك منظره الـ ... ـقاسى الأليم إلى التدمير والحـرب
أحرقتم الحرث والنسل ابتغاء هوى ... ورحمة منه فوزوا اليوم بالأرب (٥٤)

قد يقف الباحث فى حيرة من حالة الشعراء ويتساءل متعجباً عن سبب هذا التقلب من مدح الأتراك إلى هجائهم . فلو أخذنا « صدى الإسلام » وجريدة « العرب » لوجدنا شيئين متناقضين فقد مجد الشعراء رجال الدولة العثمانية وأعمالها فى العراق ونظروا إليهم نظرة الأخ لأخيه ثم انقلب هؤلاء الشعراء إلى هجومهم وحربهم ولصق كل تهمة بهم وكل بلية جاءت العراق ، فاتهموا بالهزيمة طوراً وبالكفر والشرك مرة ، وتنصلوا عن أخطائهم وصلاتهم بهم آونة أخرى . وليس هناك أى تناقض فى الأمر إنما هى حقيقة النفس الإنسانية فى أجلى صورها ، فقد كان العصر عصر اضطراب وبلبلة فكرية وقلق نفسى من جراء الحرب أعقبها انتصار جيش على جيش وهزيمته .

والمنتصر يريد أن يطمس ما للناس من فضائل وميزات ، ويريد أن يكون هو وحده صاحب كل فضيلة أو رأس كل خير وأن عهده هو عهد الرخاء وعهد الأمن ، وعهد الهناء والعيش الرغيد ، ويصم العهد السابق بأنه عهد الجوع والاستبداد والظلم ، والطغيان لكى يثبت أركان ملكه وحكمه ، والحقيقة أن ليس هناك من فرق من حيث الاستعمار فهو احتلال فى جميع صوره .

إن كثيراً من الذين مدحوا الأتراك ، وساروا معهم شوطاً بعيداً ، كانت تدفعهم الحمية الإسلامية والحمية العربية ، دفاعاً عن أوطانهم ضد الاستعمار الإنكليزى الجديد ، ومنهم جماعة كانت مخلصة كل الإخلاص لدينها ، وعقيدتها فقد اشتركوا بأنفسهم فى حرب الإنكليز ومات الحبوبى كمداً لما خسرت الجيوش التركية الحرب ، واحتل الإنكليز جزءاً من العراق (٥٥)

وقد ثبت منهم فى عقيدتهم فى تفضيل الحاكم المسلم على غيره ، إذا كان هناك تفضيل

---

(٥٤) جريدة العرب العدد ٢٠ السنة الأولى ١٩١٧ والقصيدة تقليد فاشل لقصيدة أبى تمام المشهورة :
السيف أصـدق أنبـاء من الكتـب ... فى حده الحـد بين الجـد واللعـب
(٥٥) ديوان الشبيبى ص ١٨٥.

بين احتلالين . وقد نشروا قصائدهم بتواقيع صريحة ، فما يجد الباحث قصيدة نشرت إلا باسم صاحبها لأن العمل فى سبيل نصرة دينه جهاد . أما الذين مدحوا الإنكليز فقد كانوا خائفين ، وجلين مضطربين ، صوروا الحالة النفسية المضطربة التى تعقب الحروب ورسموا لنا المثل العليا والأهداف الاجتماعية السامية التى تختلف باختلاف الحاكم . واضطراب هذه المثل شىء حتمى فى مثل هذه الظروف والتقاليد والمثل صورة صادقة لكل مجتمع . تعكس التيارات الفكرية والنفسية فهو الذى يصنعها وهو الذى يفرضها ويحميها . ومن المثل العليا التى سادت هذا العصر الامتناع عن الاتصال بالإنكليز واعتبار كل مادح لهم من المشركين والكافرين ، لذلك اختفى المادحون وراء أسماء مستعارة تخلصاً مما يصبه عليهم المجتمع من نقمة . والسبب واضح لأن الإنكليز يختلفون عن العراقيين فى الدين ، والتاريخ والدم والعادات وليست هناك أية رابطة تربطهم معهم سوى الاستعمار والقوة والحديد . وهناك سبب آخر منع العراقيين من مدح الإنكليز هو الخوف من عودة الأتراك والتنكيل بهم ، كما صنعوا بعد حصار الكوت ، فقد نكلوا بالذين تعاونوا مع الجيش البريطانى .

وملاحظة جديرة بالاهتمام ، هى أن شعر الذين مدحوا الإنكليز لا يرقى إلى مستوى الطبقة الأولى من الشعر العراقى ، فقد كان مبعث النظم الخوف من المستعمر أو الرغبة فى الأموال السخية التى كان يصرفها لكتاب جريدته . .

والانتهازيون فى كل عصر وفى كل زمان يحتفلون بالقادم الجديد ويمجدونه حبًّا فى مناصبه وماله . . ولا يهمهم غير أنفسهم وجيوبهم .

٣

الاحتلال البريطانى

بعد أن أعلنت الهدنة وبدأ الاستعمار الغربى يقسم البلاد العربية ، شعر العراقيون بثقل وطأة الاحتلال الإنكليزى ، وبدأت الدعاية فى تمجيد الحاكم الإنكليزى فى العراق وذم العهد التركى . وساهمت جريدة العرب التى كان يصدرها الاحتلال ويشرف عليها الأب أنستاس الكرملى مساهمة فعالة فى هذا الميدان ، ففى عددها الأول نجد الدعاية الواضحة فى كل ما نشرت ، فقد نشرت نداء الجنرال مودالذى يقول فيه « إن جيوشنا لم تدخل مدنكم وأراضيكم بمنزلة قاهرين أو أعداء ، بل بمنزلة محررين ، فقد خضع مواطنوكم منذ أيام هولاكو لمظالم الغرباء فتخربت قصوركم ، وتجردت حدائقكم وأنّت أشخاصكم وأسلافكم من جور الاسترقاق ، لقد سيق أبناؤكم إلى حروب لم تنشدوها ، وجردكم القوم الظلمة من ثروتكم وبددوها فى أصقاع شاسعة [1] » ومنّى العرب بالحرية والاستقلال بعد أن آذاهم « الظلمة الغرباء » . وتحدثت الجريدة فى أعداد أخرى عن فظائع الأتراك الاتحاديين فى بلاد العرب مثل « انحطاط الأمة العربية فى عهدهم » « وما قاساه العرب من الترك فى بغداد » وغير ذلك مما تطفح به صفحات هذه الجريدة .

وقد تمكن المحتلون من إغراء جماعة من الشعراء بالسير معهم ، وبذلك انقسم الشعراء إلى قسمين متضادين : القسم الأول : الذى لا يرى فرقاً بين محتل ومحتل آخر ، فالاستعمار هو الاستعمار ، سواء أكان تركيًّا أو إنكليزيًّا جاء لامتصاص ثروات البلاد واستغلالها ، وهم مستعمرون يجب أن يحاربوا دون هوادة ، ولم تكن البلاد قادرة على المقاومة فى هذا الظرف فيجب مقاطعة المحتلين وعدم الاتصال بهم ، وهذا القسم هو الذى أوقد نار الحرب على الاستعمار البريطانى ، وزودها بالوقود لحرقه ، وسنرى ذلك فى فصل الثورة العراقية .

أما القسم الثانى ، فقد رأى الإنكليز خيراً من الأتراك ، لأن شعراءه انتفعوا بهذا الاحتلال

---

(١) نشر النص الإنكليزى فى ص ٢٣٧ وبعدها من كتاب ولسن ج ١.

وحصلوا على مكاسب لم يحصلوا عليها فى العهد التركى ، أو أنهم طمعوا فيما بذل الإنكليز من الأموال ، فأرادوا أن يتقربوا إليهم زلفى وهم شأن الشعراء الذين هاجموا العهد التركى بأن نشروا قصائدهم بأسماء مستعارة ، خوفاً من الرأى العام ، وهم مع ذلك نفر محدود العدد . لكن الزهاوى كان أجرأ الشعراء فى تحدى الشعور العام ، فقد استمات فى الدفاع عنهم وعن أعمالهم ، فأحبوه وقربوه حتى إن « مس بل » كانت تسميه « شاعرنا » عندما تريد أن تذكر اسمه . . ومن قصائده التى نشرتها جريدة العرب قوله :

وجدت الإنكليز أولى احتشام ... أبـاة الضيم حفاظ الذمـام
فصادقهم تجد أخلاق صـدق ... لهم والصدق من شيم الكـرام
إذا بهم احتمى المذعـور يـوماً ... رأى منهم لـه أقوى محـام
وبـات على فراش الأمـن خلـواً ... ونامت عينـه أهنـا منـام

ويبرر سبب حبه للإنكليز بعدلهم ودكهم صروح الظلم ، وسياستهم الحكيمة التى تذلل كل الصعوبات ، يقول :

أحب الإنكليـز وأصطفيهـم ... لمـرضى الإخـاء من الأنـام
جلـوا فى الملك ظلمة كل ظلـم ... بعـدل ضـاء كالبـدر التمـام
ودكـوا بالسياسة كل صـعب ... وخاضـوا بحـره والبحـر طامى

ثم يصف الأسطول الإنكليزى وقوته فى البحار ، وتحطيمه أساطيل الأعداء وأن جيشهم قاهر منتصر لا يمكن لجيوش العالم أن تغلبه لأنه جيش لا يكترث بالموت وتساوت لديه الحياة والموت . ثم يهاجم الأتراك ويصفهم باللؤم والغدر وأنهم أذاقوا العرب الذل والهوان ، بقوله :

وأنت تسومك الأتـراك خسفاً ... وتسلب من حقـوقك باهتضـام
ووال الإنكليـز رجال عـدل ... وصـدق فى الفعـال وفى الكـلام [٢]

ولم تكن هذه هى المرة الأولى والأخيرة التى مدح الزهاوى فيها الإنكليز فقد مدحهم بعد ذلك وهجا العراقيين فى الثورة العراقية وسخر منهم سخرية لاذعة ، وخطب محرضاً « برسى كوكس » على إعادة الأمن إلى نصابه ، وطلب الدواء للعراق المريض ، والقصيدة كان قد

---

(٢) جريدة العرب العدد ١٥ – ٢ – ١٩١٨ ولاحظ الكلم المنظوم ص ١٤.

نشرها قبل دخول الإنكليز العراق فى ديوانه « الكلم المنظوم » ولم يكن عليه ضير لو تركها أو أعادها مرة أخرى دون تحريف ، ولكنه حرف بعض أبياتها وذكر الأتراك فيها صراحة ونشرها فى جريدة العرب ، جريدة الاحتلال الإنكليزى ، فأثبت شدة تملقه للإنكليز ، ولم يكتف بهذه القصيدة وإنما كان يظهر تعلقه بهم ، وصداقته لهم فى كل مناسبة ممكنة ، فانضم إلى حزب النقيب « الحزب الحر » الذى يؤيد سياستهم فى الاحتلال ، الحزب الذى وقف الرصافى منه موقفا حازماً وهجاه بأقذع وأمرّ هجاء .

إن نفسية الزهاوى القلقة الخائفة هى التى ألجأته إلى التمرغ على أعتاب المحتلين بعد أن كان عزيزاً محترماً نال أرفع المناصب فى العهد التركى[٣] ، وكان من الوفاء أن يسكت ، أو يمدح الإنكليز دون أن يسب أو يتعرض للمناوئين وذلك أضعف الإيمان . والمؤمل أن يكون شاعراً ثائراً على هذا الاحتلال الذى أهان بلده ووطنه أسوة بزملائه الشعراء الذين ناضلوا ، وبقى منهم من يناضل حتى النفس الأخير ، صابراً على الأذى فى سبيل حرية شعبه وكرامته .

وللزهاوى قصيدة أخرى يصف فيها حسنات الإنكليز ، يدعو فيها صراحة إلى الاستعمار البريطانى وتأييده ، قال فيها :

علينا بفضل الله ظل حكومة ... أتت بهدى فى العلم أبيض ناصع
لقد حررتنا من مظالم جمة ... بحد المواضى المرهفات القواطع[٤]

وأطرف قصيدة هى قصيدة « ابن السليقة » فقد مدح فيها ملك الإنكليز ، الملك الذى انتصر فى الحرب ، وتبدو طرافتها فى الروح البدوية والعقلية الساذجة التى مدح بها الملك جورج ، فقد تصور الملك جورج ملكاً يبعث اسمه الرهبة فى القلوب ، وتود عيون الملوك أن تكتحل بتراب أقدامه ، ويتصور الشاعر نفسه راكباً ناقة ذاهباً بها إلى لندن ، لينزل برحله بباب الملك ، فقال :

دعائى وحمدى ومدحى اتصل ... لسلطاننا وعميد الدول
هو الملك المرتقى فى علاه ... مراقى ينحط عنها زحل

---

(٣) بعد أن فشل الزهاوى فى الحصول على ما يريد ، ندب العهد التركى بقوله :
أين عزى فى دولة الأتراك ... أنا باك مما به أنا باكى

(٤) جريدة العرب ١٧١ – ٣ – ١٩١٨.

وقال :

وإن السلاطين دانـــوا لـــه وباتـــوا به يضربـــون المثـل
وإن ذكـــروا اســـمـــه بينهـم لهيبتـــــه يعتريها الـــوجل

ومنها :

فيـــا راكبـــاً ظهـــر مرقالـــة يجـوب الحـــزون بهـــا والسهل
ينادم نجم السما فى ســـــراه ويهـوى بواد ويعلـو جبـــل
أنخهـــا « بلندن » عند المليـــك وقبل الأعتـــاب ذاك المحل « كذا »

وقد نشرت جريدة دار السلام قصيدة لا تختلف عن غيرها من شعر هذه الفترة إلا بالتكلف المرذول الذى تكلفه (المعلم داود صليوا) فى مدح الجيش الإنكليزى بجعل كلمة « الخال » قافية لجميع القصيدة ، ولم تخف المجلة هذا الشعور فقالت « أدرجنا هذه القصيدة على علاتها مراعاة لصاحبها » ، وفيها مدح لإنكلترا التى أذلت الرؤوس ودان لها السلاطين . وفى القصيدة ذكر لحضارتها وسياستها للرعية التى محت الظلم والاستبداد وحررت العرب ، وكستهم المجد . . إلى آخر ذلك . . ومطلعها :

بخـال فتاة الخال أشغفنى الخـال فلا ثم عم يا أميمـــة أو خال[٥]

وقد مدح الشيخ عبد الحسين الحويزى[٦] الإنكليز ، والطريف أنه احتفظ بهذه القصيدة بعد مرور وقت طويل ، فقد كتبت إليه أن يرسل إلىّ بشىء من شعره السياسى فكانت هذه القصيدة ضمن ما أرسل به إلىّ ، والقصيدة طويلة اتخذ فيها موت الملكة فكتوريا واسطة لمدح الدولة الإنكليزية ، فرأى فيها كل المحاسن والمكارم السامية عدلا ورحمة وفخراً لخصها بقوله :

وحويت فى الدنيا مكارم جمـــة طلعت بدوراً تزدهى وشموســـا

ثم يسهب فى وصف هذه المكارم من قوة ورهبة وسطوة وعدل ساد الرعية ، وأفرط إفراطاً ممجوجاً فى المبالغة ، فهو لا يختلف بأى حال من الأحوال عن شعراء القرن التاسع عشر ، فقد جعل الشمس حاجباً لها ، والقمر جليساً لها ، ثم امتدح ولدها الذى خلّفها بقوله :

---

(٥) دار السلام العدد ٣ – ٢ – ١٩١٩

(٦) يبلغ من العمر الثامنة والثمانين « سنة ١٩٥٤ » وشعره لا يسمو إلى مرتبة القريض .

للدولـــة العليـــاء شبلا أعقبت حفظت قريحة فكـــره القاموسا
ملك رعيتـــه إذا ذكـروا اسمـه ضربت لمثل جلالـــه الناقوسا (٧)

وقد انصب بعض المديح على الجنرال ستانلى مود(٨) الذى منّى العراقيين فى منشوره بالحرية والاستقلال ، وتحريرهم من الاستعمار بإقامة حكم وطنى فى البلاد ، وقد أصيب القائد الإنكليزى بالهيضة فمات ودفن فى بغداد(٩) . . وقد أسف على موته ، وظن بعضهم إنما قتل لأنه وعد العراقيين وعوداً خلابة ، لذلك تسابق نفر من الشعراء إلى مدحه ، وظفر بما لم يظفر إنكليزى من عطف القوم ورثائهم . . فمن الذين رثوه شاعر سمى نفسه « ابن الرثاء » :

لله أى مصـــاب فادح عظمـا أورى بقلب المعالى زنـــده ضرما
خطب ألم فأشجى المكـرمات وقد فاضت لفجعتـــه عين الفخار دما
أودى الحمام بمـود باسل فغـــدا شمل العـــلا بدداً إذ كان منتظما
قد مات بحر الندى والمكرمات وكم قد فاض زاخره بالجود ملتطما(١٠)

وقد عنيت الجريدة فى قصائد الرثاء التى نظمها الشعراء فى « مود » ، ونشرت بعضها افتتاحية لجريدة العرب . . فقد رثاه ابن العراقين وابن السياره ، وابن قفطان(١١) ، وغيرهم . . ويقتضى الاستطراد أن أقول إن إقامة تمثال مود آلم الوطنيين ، أشد الألم لأنه تمثال يمثل العبودية ، وقد سخر الشيخ على الشرقى قائلا :

كل رجال لعبت دورهـــا وما وجدنا فى السويدا رجال
قد خذلت بغداد منصـــورها وأنهضـــوا فيها « لمود مثال »
فى كل يوم بهرجت دورهـــا لأمة من أمم الاحتـــــلال
بالله يا من سبروا غـــورها ماذا وجدتم أمـة أم خيال ؟(١٢)

---

(٧) القصيدة بخط يده ، وعليها آثار رعشة العمر ، فى مكتبتى الخاصة .
(٨) حاول الوطنيون عدة مرات اقتلاع تمثاله المقام أمام السفارة البريطانية فى الكرخ .
(٩) لاحظ جريدة العرب العدد ٩٦ – ١ – ١٩١٧ ترجمة حياته ودفنه
(١٠) العرب العدد ١١١ – ١ – ١٩١٧ .
(١١) العرب الأعداد ١٠٩ ، ١٠١ ، ١٠٢
(١٢) ديوان على الشرقى ص ٩٤ ، بقى التمثال شامخاً فى جانب الكرخ يمثل الاستعمار الجاثم على صدر العراق ، وقد جرت محاولات لقلعه ولم تنجح هذه المحاولة إلا فى الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ وقد أشارت الكاتبة الإنكليزية « دورين وارنر » إلى رموز الإقطاع والاستعمار والملكية فى كتابها المطبوع فى لندن سنة ١٩٥٧ .

Land Reform And Development In the Middle East.

٤

الحرب والسلم

تردد ذكر السلام والحرب كثيراً فى الشعر العربى ، ولعل زهير بن أبى سلمى أول من نظم فى استهجان الحروب وذمها ، فقد وقف موقفاً كريماً سجل فيه مشاعر الإنسانية وبغضها للحروب ، وما تجره من ويلات ومصائب . . فى قصيدة طويلة منها :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضر إذا ضريتموها فتضرم
فتعركم عرك الرحا بثفالها ... وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم (١)

ولا يكاد يخلو أدب أمة من وصف للحروب وويلاتها ، ونجد فى كل عصر من العصور من يذم الحروب ويمجد السلام . لأن الإنتاج المبدع المنظم لا يكون فى ظل الحروب .

وتصاحب الدعوة إلى الحرب دعوة إلى السلام لأن الإنسان تهزه مصائب الحروب ، وتوجعه ويلات البشر ، التى توقف الحياة عن عملية الإنتاج وتجر إلى الحرمان والتقشف والجوع وفتك الأمراض . وتشريد الأطفال والنساء وازدياد المآسى والأحزان .

لذلك فالشعر خلال الحرب تسوده روح التشاؤم ويطفح بالحزن والألم الشديد . مهما كانت دوافع الحروب ومهما يسبغ عليها مثيروها من نعوت وألقاب ، فالهندوای يعرف أن الحرب أثيرت ضد العدو الذى جاء يستعمر بلده واضطر للحرب والقتال ليدافع عن وطنه ويثأر لكرامته وعزته . . ولكنه رآها ضرورة بغيضة فهو يدعو إلى الحروب مضطراً لأنها جهاد فيقول :

وإذا لم يكن من الحرب بد ... فلنثرها حربا تشيب الوليدا
ولنمت فى الدفاع عن حرم الحـ ... ـق فقد بات وهو يشكو الجمودا
أين قومى وهل ترى غير قومى ... أمة تصدع الصفا والحديدا

(١) شرح ديوان زهير بن أبى سلمى – لثعلب – ص ١٨ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٤.

إن قومى أبنـــاء قحطان حازوا طارف المجـــد والعلاء التليـــدا
شهـــد السيف أنهم أمـــة الحر ب إذا هـــزت الـكماة البنودا
وكفى بالحسام وهـــو أخو صـــد ق على البأس للرجـال شهيـــدا

ولكنه يضطر إلى إثارة الحروب التى كانت شراً لابد من دخولها ، فيصف مساويها التى حاقت بالبشر فقال :

شرر طبـــق البحـــار هبوطـــا واعتلى قارب الوهـــاد صعـــودا
أحـــرق المال والنفـــوس وآلى لا نباتا يبقى ولا جلمـــــودا
عم وجـــه الصعيد طـــراً فأمسى كل شىء على الصعيـــد وقـــودا

وصور مبلغ ألم الشاعر من الحروب ، وحملته العنيفة على العلوم التى خلقت هذه الآلات التى تفتك بالبشر فتكاً ذريعاً ، بينما خلقت العلوم لإسعاد البشرية لاستغلالها فى الشر والفتك بأخيه الإنسان ، ولما رأى الشاعر مقدار ضراوة الحرب فضل حياة القرون الوسطى وعصور التأخر ، لإنقاذ البشرية من الدمار الكلى الذى أحدثه عصر النور ، وكتب صفحات تأريخه بدماء الأبرياء فأحال صحائفه البيض المشرقة سودا تسيل دماً ودماراً ، فقال :

يا زمـــان النور الـــذى قد ألا ن العلم فيـــه الصفا والحديـــدا
لح كئيبـــا فقد أعـــاد بنوك الـ يوم منك الصحائف البيض سودا
لطخـــوا بالدمـــاء وردة خدي لك عقوقاً فشوهوا التوريـــــدا
وبكف العلـــوم جروا لنـــا الو يلات واستفرغوا لهـــا المجهـــودا
ليت لا كانت العلوم ولا كا نوا وليت الذكى يفـــدى البليـــدا
حبـــذا لو بقى الجمـــود وتعـ ساً لقوم لا يشكرون الجمـــودا
إن عصر الجمـــود عصر شريف عاش فيه الإنسان عيشاً رغيـــدا

وقد ظهرت فى هذه القصيدة ظاهرة جديرة بالإشارة إليها ، هى أن الشاعر سخط على الملوك الذين يرسلون بالشعوب إلى الحروب رغبة منهم فى السيطرة ، وشهوة للحكم ، وإطفاء لشهوة الأحقاد والضغائن التى بينهم ، غير عابئين بما يحيق بالشعوب من ويلات . . وقد جزع الشاعر من هذه الحروب التى كان الملوك سبباً مباشراً فى إثارتها ، فأخذ يستدر رحمة الملوك ، ويثير فيهم المشاعر الإنسانية ليكفوا عن هذا القتال ، وضجر الشاعر وجزعه من

الحروب رد فعل لما حل ببلاده وبالبشرية من خراب ودمار ، فقال بصراحة :

رحمة أيهـــا الملوك بأهـــل الأر ض وكفـــوا جيوشكم والجنـــودا
ضاقت الأرض بالذى حل ذرعـاً فاكفهرت وأوشكت أن تميـــدا
جـــردوها عواطفـــا وشعورا وادفنـــوها ضغـــائنا وحقـــودا
وتلافـــوا بقيـــة السيف منكم فهى بالسيف أوشكت أن تبيـــدا

وذكرهم بأن البشر سواء فى العواطف والمشاعر ، وأن ليس هناك فرق بين إنسان وإنسان آخر ، فهم سواسية فى العذاب والآلام والمشاعر حباً وبغضاً :

فارحموهم فهـــم وأنتم ســـواء قد تماثلتم أباً وجـــــدودا
لـــو رجعتم إلى الحجى لرأيتم سيد القـــوم لا يطـــول المسودا
إنمـــا الجهـــل أوجد الفرق فى النا س فكانوا مواليـــا وعبيـــدا

وقد عبر الشاعر عن رأيه فى الحروب أصدق تعبير ، وعزاها إلى المنتفعين بها وهم الملوك ، وبالرغم من أنه ختم قصيدته بالدعوة إلى الحرب لم نجد الشاعر يندفع اندفاعاً دينياً فى الدعوة إلى الحرب ، فلم يقل إن الكفار قد وطئوا أرضكم ، لأنه يرى الإنسانية تستباح ويفتك بها لأنه بعيد النظر ، واسع الأفق ، رأى أموراً لم يرها غيره من الشعراء . . رأى الإنسانية تتقرب من الملوك ، ورأى الملوك والرعية يتساوون فى الفتك والموت ، غير أن الظروف هى التى خلقت هذا ملكاً وهذا من أبناء الشعب . وعندما أراد أن يثير الحرب أثارها باسم قومه العرب ، الأمة التى تصدع الحديد والتى سجلت فخرها ومجدها فى صفحات التاريخ ، لأن رغبة الشاعر لم تكن عميقة فى الذود عن الأتراك ، فلم يحث صراحة على الحروب ولم يحرضهم ولم يطالبهم بصراحة ، إنما أوجب الحرب لأن العدو دخل حدود وطنه ويجب أن يحارب ليطرده من هذا الوطن :

إن ظنى وأكثر الظـــن حـــق إن قومى لا يرتضـــون القعـــودا
سيخطـــون بالقواضب حـــدا للعـــدو الذى تخطى الحدودا (٢)

أما « ابن اليراع » فقد شاهد الحرب فى الأرض والبحر والسماء ولم تنج بقعة من ويلاتها ، فصرخ من أعماق قلبه مطالباً بالسلام ، صرخ بالدول لترفق بالإنسانية وتخفف من مصائبها فقال :

---

(٢) صدى الإسلام العدد ٧٩ – ١ – ١٣٣١ وقد ثبتها فى ديوانه المخطوط . وعندى نسخة منه .

دول الأرض أين أيـــن السلام فعلى الرفق والحنـــان السلام
خففوا الويـــل عن بنى الإنسان إنمـــا الويل فى الشرائـــع ذام
قد قست منكم القلـــوب وأنتم بشر مثلهم دم وعظـــــام
ارحمـــوهم فهم وأنتم سواء كلـكم أنتجتكم الأرحـــام

وتساءل « ابن اليراع » عن السلام ومتى تضع الحروب أوزارها وتستقر الأمور وتهدأ النفوس الضالة الحيرى ، ولكنه استدرك فوجد أن موقدى نيران الحروب هم تجار الحروب وهم الحاكمون ، لذلك وجه تقريعه ولومه على من أججج هذه الحروب التى زادت نسبة اليتـامى ، وفجعت الناس بالأعزاء من البنين . . ثم وقف صراحة وخص الملوك بهذا التقريع ، فهم الذين يعاملون أبناء الشعب معاملة الراعى القاسى للأغنام الضعاف ، وإلا فما فائدة الشعوب فى هذه الحروب التى تشن لنزوات الملوك ومنافعهم الشخصية وشهواتهم . . وفى إثارتها الدماء والدموع والفناء والجوع والمصائب ، فقال يخاطب الملوك :

إن لومى على الذى أجـــج الحرب حيث فى الحرب تكثر الأيتـــام
ولو أن الحروب فيهـــا حيـــاة لشعوب من دأبهـــا لا تضـــام
يا سماء أمطـــرى على الأرض دوماً غضباً فيـــه تهلك الظـــلام
يا ملوك الأرض أشفقوا بالرعايـــا سئمت من رعاتهـــا الأغنـــام
فلحفظ الأنـــام تستعمرون الأر ض أم للأطمـــاع تفنى الأنـــام
إن يكن حربكم لنيـــل انتقـــام ففنـــاء العباد ليس انتقـــام
حيث أهلكتم بهـــا الحرث والنسل لم يرعكم شيخ قضى وغـــلام[٣]

وكان كل الشعراء على اختلاف بيئاتهم يكرهون الحروب لأنها وسيلة لتهديم دعائم السلام ، وتقويض دعائم الطمأنينة والأمان فى النفوس ، وطريقة لبث الرعب والفزع فى قلوب الضعاف من النساء والأطفال . . فقد نظم « الرصافى » قصيدة « من ويلات الحروب » مصوراً فقيرة أضناها الفقر من أثر الحرب فخارت قواها ، فأخذ الشاعر يخفف من وقع الألم ، وكان ألمها شديداً حتى إنه أبكاه وأوجعه . ثم هاجم الغرب مشعل الفتن والحروب ، وذكر ما تصنعه الحروب من تبدلات فى حياة البشر عامة فقال :

---

(٣) جريدة العرب العددان ٨١ ، ٨٢ – ١ – ١٩١٧ وتراجع قصيدة ابن اليراع . . التى يصف فيها إحدى المعارك .

قامت قيامة أهل الغرب فانبعثت ... هزاهز بينهم عمت بنى نـــوح[٤]
واستفحلت فتنـــة عميـــاء جائحة ... تمخضت من دم فى الأرض مسفوح
وقامت الحرب باللأواء شاملـــة ... كل البسيطة حتى الأبحر الفيح[٥]
والأرض قد أصبحت من مكر ساكنها ... محمرة اللوح أو مغبرة السوح[٦]
ضاقت على الناس وانسدت مسالكها ... فعـاد كل طريق غير مفتـــوح
والحرب أغنت أناساً غنيـــة عجباً ... وآخرين رمتهم بالمجاليح[٧]
ومعشراً أسكنتهم فى الـــذرا غرفا ... ومعشراً بطن ملحـــود ومضروح[٨]

وللرصافى عدة قصائد فى ويلات الحرب ومصائبها . . فى قصيدته « أبو دلامة والمستقبل » حرب شعواء على الحروب التى تشنها المطامع ، فتسفك دماء الأبرياء ، وتيتم الأطفال ، وتفنى الجيوش لجشع فئة محدودة . أظهر كرهه للحروب التى تفتك بحريات الشعب ونفوسه ، فقال فيها :

أمن السياسة أن يقتل بعضنـــا ... بعضاً ليـــدرك غيرنا الآمـــالا
لا در در أولى السياسة إنهـــم ... قتلوا الرجال ويتموا الأطفـــالا
غرسوا المطامع واغتدوا يسقونهـــا ... بـــدم هريق على الـــثرى سيالا
نثروا الدمـــاء على البطـــاح شقائقا ... وتوهموها الروضـــة المحلالا[٩]
تفنى الجيوش ولا ضغائـــن بينهـــا ... سبقت ولا تـــرة ولا إذحـــالا
قالوا كرهت الحرب قلت لأنهـــا ... دارت لتغتصب الحقـــوق الآلا[١٠]
وأجلت فكرى فى الحروب فلم أجد ... أبدا لهـــن سوى الخمـــور مثـــالا
طاشت منافعها الصغار عن الورى ... ورست مآثمها الـــكبار جبـــالا

---

(٤) الهزاهز : الاضطرابات التى تهز الشعب . القصيدة فى ص ٢١١
(٥) اللأواء : المجاعة ، وكل مصيبة شديدة .
(٦) اللوح : بضم اللام الهواء . يكنى فى البيت عما حل فى البلاد خلال الحرب العظمى من المجاعة والمصائب العامة .
(٧) المجاليح : السنون الشديدة ذات القحط والجدب .
(٨) مضروح : أصبح له ضريح ، أى ميت .
(٩) المحلال : كثيرة حلول الناس إليها ودخولها .
(١٠) الآل ، الأصحاب ، أى أن الحروب تسلب الحقوق أصحابها .

ما أجشع الحرب الضروس فإنها تحسو النفوس وتأكل الأمـــوالا[١١]

وفى قصيدة أخرى يصف إحدى الوقائع التى حصلت بين روسيا واليابان ، وما جرت هذه الحروب على الإنسانية من ويلات ، لم يستهجن شاعرنا الحرب لأن ويلاتها نكبت أبناء وطنه فقط ، وإنما وقف موقفاً إنسانياً كريماً فحاربها . لأنها تفتك بالإنسانية وتبيد البشر أجمع وقد بدت هذه الروح الإنسانية فى قصيدته التى مطلعها :

سعروها فى البحـــر حرباً ضروساً تأكل المـــال نارها والنفوسا[١٢]

وقد كان لإعلان الهدنة رنة فرح وسرور فى جميع العالم ، إذ وقف سيف المصائب من حصاده ، وطاحونة الآلام من دورانها ، وبدأ الأمل الحلو يداعب الناس بحلول الاطمئنان والهدوء وبدأ السلام يرف بأجنحة على الشعوب فى هذه المعمورة التى أنهكت قواها الحروب ، وأقيمت الأفراح فى كل مكان ولا سيما فى دنيا المنتصرين . . وعبر « الزهاوى » عن فرحه هذا بقصيدة رأى فى الهدنة طريقاً لتحرير الأمم من رق العبودية ، وأن الإنكليز سوف يأخذون بيد العراق نحو التقدم والرقى ، لأنهم أنقذوه من الأتراك ، وقد جافى الزهاوى الحق كله وأراد أن يتقرب إلى الإنكليز بقصيدته ، إذا اعتبر الهدنة سبيلا لتحرير بلاده التى أصبحت قطعة مستعمرة للتاج البريطانى . وغدت البلاد العربية بل أكثر الشرق تحت دول السيطرة الأجنبية . . كيف رضى أن يغالط نفسه ويدعى أن الهدنة طريق لتحرير الشعوب من العبودية والاستعمار ، وقد أكد هذا المعنى فى المقطوعات السبع التى نشرها فى هذا المعنى ، فقال :

أتى الله حزب الحـق نصراً فحرروا وراء انتصـار فى الحروب شعوبا
وأعطـوا من العدل العراق نصيبـه يسرون من أهل العـراق قلوبا

وفى بيتين آخرين قوله :

قد انتهت المهـالك والحـروب وفى العقبى تحـررت الشعوب
هنيئـا للعـراق فسوف يلقى بذلك ما تطيب له القلـوب[١٣]

---

(١١) الديوان ص ٣٦٨.

(١٢) الديوان ص ٣٥٩.

(١٣) تراجع جريدة العرب العدد ١٣٩ المجلد الثالث ١٩١٤ . . وللزهاوى باب فى ديوان الزهاوى من ص ١٠٧ – ١١٧ المطبوع فى مصر سنة ١٩٢٤ . . ويراجع اللباب ص ٤٨ والعرب ١٧١.

واعتبر الزهاوى الإنكليز حزب الحق الذى خلق ليحرر الشعوب من الاستعباد ، وقد أوغل فى الدعاية للإنكليز وحسن الظن بهم ، وظن بأن الشعوب كلها سوف تنال حريتها واستقلالها ، وأنها ستفوز بالخير العميم ، وسيحف الرفاء بالعراق من كل جانب . فتعم الفرحة قلوبهم والعدل ديارهم .

وقد شارك « محمد مهدى البصير » [١٤] الزهاوى فى هذه البشرى . . بشرى الهدنة ، وتصور وجود السلام مدعاة لإعادة مجد العرب وتحريرهم من الذل والعبودية ، وتخيل أن هناك حفلة ستقام ابتهاجاً بهذا اليوم السعيد ، وصفها بقوله :

أعاد لنـــا السلم مجـــد العرب ... فحيـــا الإلـــه وأحيـــا حلب
على أسس الصلح قامت لهـم ... عـــــروش دعائمهن الطلب
ستبنى غدا بيـــد المالـكين ... ولم تبنهـا اليـوم هذى الخطب
أثـــارهم ساسة الاضطهـــاد ... فذاقوا الحيـاة بكاس العطب
ويـــوم على ذكـر تحريرنـــا ... أقمنـــا بها حفـلات الطرب[١٥]

ويتصور البصير أن الحرية التى حجبتها المطامع وراء دخان المدافع جاءت بعد الهدنة تحيى العرب وحلت فى ديارهم ، لأن الحلفاء قرروا تحرير الشعوب العربية .

وللبصير قصيدة أخرى يتحدث فيها عن السلام ، نشرها بتوقيع مستعار[١٦] ، حشر فيها نظرية التنازع على البقاء ونظرية البقاء للأصلح حشراً ، فقال :

قلت السلام على السلام فقد أبى ... حتى الجماد مع الحيـاة سلاما
إلا إذا انقرض التنـــازع فى البقـــا ... فالسلم ينشر فى الـورى أعلاما
والناس لو يتناصفـــون تصافياً ... لم يسق قوما آخـــرون حماما

وليست الحروب كما ظنها الشاعر حرب تنازع على البقاء ، وإنما هى حرب استعمارية . . فالمستعمر يريد أن يوسع رقعة أرضه جشعاً ، وقد التفت البصير نفسه إلى هذا الأمر بعد ذلك

---

(١٤) سألت الدكتور البصير عن هذه الحفلة فأخبرنى متفضلا أنها خيالية ولا صحة لما ورد فيها .

(١٥) مجلة دار السلام العدد ٤ – المجلد الثانى – ١٩١٩.
احتفلت سلطات الاحتلال احتفالاً رسمياً ، وأنيرت أنوار الكهرباء ، وأرسلت السهام النارية فى الفضاء . . ووصف هذه الحفلة إبراهيم منيب الباجه جى بقصيدة فى العدد ١٥ من المجلد الثانى من دار السلام ١٩١٩ .

(١٦) قالت مجلة دار السلام : كل ما نشر فى هذه الوضعية وفى جريدة العرب مذيلاً باسم « ابن بابل » فهو للشيخ محمد مهدى البصير شاعر الحلة الشهير . . العدد ٢١ المجلد الأول .

واتخذ « غليوم » إمبراطور ألمانيا مثلا ، فوصف الحاكمين الذين يستعبدون الشعوب ويذلون الرقاب ، وتطرق إلى أعمالهم التى أدت بالشعوب إلى الذل والهوان . . فقال يصف المستعمرين بقوله :

وقضى لهم غليـــوم فى غلوائـــه ألا يعيشوا وادعـــين كرامـــا
لا در در الحاكمـــين بأمـــة ولوا عليهـــا الصـــارم الصمصاما
الطامعين بكل ما تحت السمـــا وعساهم لا يبلغون مرامـــــا

ويبرز أعمالهم البشعة وقسوتهم التى سخرت بحق الشعوب دون أن يسمعوا نوح الثكالى ، وصراخ الأيامى ، فقال :

وإذا المدافـــع أسمعت أصواتهـــا مثلـــوا قعـــوداً حولهن قيـــاما
شغلت مسامعهم فليس يهـــزها يوما أنين أرامـــل ويتـــامى[١٧]

وللبصير قصيدة أخرى نشرت عام ١٩٢٠ وصف فيها الحرب وأعمال إمبراطور ألمانيا فى باريس ورومانيا وبلجيكا والصرب ، وكيف دخل روما ، ثم وقوف فوش وولسن بوجهه ، فحطما آماله ، وأجبراه على التنازل عن العرش ، فقال :

ولو لم ينازعـــه السياسة ولسن لما خسر المجد الذى هو طالبـــه[١٨]

وله قصيدة يرسم لنا فيها صورة رائعة لجريح فى بلد متأخر فى جميع إمكانياته ، ولا سيما الصحية منها ، وما يعانيه هذا الجريح من آلام الجراح حتى يتمنى الموت من هول هذا الألم فقال :

وثاكلـــة يئـــن لهـــا جريـــح طريح لا يعلل بالـــــدواء
تمكنت القذائف منـــه مرمـى فآيست الأساة مـــن الشفاء
يئن إذا أضر الجـــرح فيـــه فيشجيها فتجهش بالبـــكاء[١٩]

كانت آثار الحرب شديدة فى الشرق ، وفى العراق خاصة ، فقد فتكت المجاعة بالشعوب الضعيفة التى لم تدرك حكوماتها مغبة الأمور ، بعد أن توقفت المصانع عن الإنتاج ،

---

(١٧) دار السلام العدد الرابع – السنة الأولى ١٩١٨.
(١٨) دار السلام ٥ – ٣ – ١٩٢٠.
(١٩) دار السلام ١-٣-١٩٢٠

فلم يتمكن الزارع من مواصلة الزراعة لأنه يحارب فى المعركة ، وأما زرعه فلم يكف حتى للقوت الضرورى لحياته . وانشغال الدول بالحروب وقف حائلا أمام التجارة فتدنت الحياة الاقتصادية . وفتك الجوع بالناس ، وبددت الثروات وتقوض العمران . وتوقفت عجلة المدنية عن السير وتأخر ركب الحضارة .

ومع كل هذه المصائب التى حاقت بالإنسانية نرى المستعمرين يدعون إلى السلام ، ولكن على حساب اقتسام الشعوب الضعيفة واستغلال ثرواتها وامتصاص مواردها ، فيختصمون. فيسخر الشاعر من هؤلاء بقوله :

يا دعـاة السلم فى قصر السلام ... أيـن مسعاكم إلى تأييـده
أنتجت أتعابكم هـذا الخصام ... أفلا نقـوى على تبـديده
فهلمـوا اسعوا إلى رد النظـام ... واعملوا حقًّا على توطيـده
وأذيعـوه لـدى أشياعـه ... كم لـه بين الورى من شيـع
وإذا فتشت عن أتبـاعه ... لم تجد أنت سوى متبع [٢٠]

وقد أضنت الحرب كاظم الدجيلى وآلمته فتساءل : متى يعم السلام الشعوب فتطمئن النفوس بعد هلعها ، والقلوب بعد خوفها ! ! وعزا الحروب إلى القادة الطامعين بأوسمة براقة ، وبمجد زائل ، دون أن يرحموا جموع الشعب . . وأطفاله وشيوخه ، ويبصرهم بالطريق السوى للشجاعة والإصلاح فيقول :

ليس من أزهـق النفوس شجاعاً ... ليس من جـد فاتكاً بمجيـد
إنمـا أشجع البريـة طرًّا ... مصلح قام بين أهل الجمـود

وتمنى أن يعم السلام ليعود الهناء ويقضى على تجار الحروب بقوله :

فمتى يا تـرى يموت غـواة ... جنـدوه لقائـد ومقـود
فيعم السلام فى النـاس طـرًّا ... ويعـود الهنـاء للمستعيد [٢١]

---

(٢٠) نشرت القصيدة بتوقيع « شاعر متألم » فى دار السلام العدد ١٧ من السنة الأولى ١٩١٨ وهى لباقر الشبيبى راجع الأدب العصرى ص ١٢٤ وترجمته فى شعراء الغرى .

(٢١) دار السلام العدد ٦ السنة الثانية ١٩١٩ وقد وقعت بتوقيع ك. د وقد وجدت على نسخة مكتبة الآثار اسم الشاعر بخطه.

هذه هى الحروب بشرورها ، وآلامها ، ومصائبها ، وموقف الشعر منها وفيها صورة لما حاق بالعراق من أحزان وآلام . . وفاقة وجدب وجوع وأمراض . . والتى انتهت باستعباد العراق من الإنكليز . . فقد ظهرت المعاهدات السرية التى قسمت الدولة العثمانية إلى مناطق نفوذ . . ولم يبق بعدها للخلافة العثمانية نفوذ . قد احتل الحلفاء البلاد وهيمنوا على مقدراتها ، وهرب رجال الاتحاد والترق[٢٢] الذين دفعوا الدولة إلى الحرب دفعاً . فذاق الأتراك مرارة الاحتلال والحكم الأجنبى . . .

وبذهاب الخلافة العثمانية بدأت الفكرة القومية تتسرب إلى الأقطار العثمانية ، وأخذت تدعو إلى تشكيل دولة مستقلة .[٢٣]

---

(٢٢) قتل أنور باشا فى تركستان فى ساحة القتال والتجأ طلعت باشا إلى برلين فقتله أحد الأرمن ومات جمال باشا فى تفليس فقد كان يقصد الأفغان لأنه كان يمنى نفسه بتأسيس دولة حديثة (على طريق الهند ص ٢٣٨) ويلاحظ ص ٩٢ من هـذا الكتاب وهناك تفصيل عن جمال باشا فى جريدة العراق العدد ١٩٣١/١٢/٣٤٤٩.

(٢٣) على طريق الهند ص ٢٣٢ – ٢٤٤ بشأن التفصيل والمصادر .